جامعـة
المنصــورة
كليـــة الآداب

الصـــورة الضحـــى
دراســة تحليلــة

إعـــداد

الدكتور / أحمد عبد السلام أبو الفضل

مدرس بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

كلية التربية – جامعة المنصورة

مجـــلة كلـــية الآداب – جامعـــة المنصـــورة
العدد الثانى و الخمسون – يناير ٢٠١٣

صـورة الضحى

"دراسة تحليلية"

د . أحمد عبد السلام أبو الفضل

المقدمـــــة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ، تبصرة وذكرى لأولى الألباب ، أنزله جامعا، ونوراً ساطعاً ، وضياء لامعاً ، وحكما قاطعاً ، ودواء ناجعاً ...

فيه زجر يزعج غلاظ الأكباد .. إلى إنذار يطأطىء رؤوس العباد ، إلى قصة فى الغابرين ، فيها آيات للسائلين ، إلى غير ذلك من علوم الدنيا والدين .. مما يكفل لأهله العلو على العاملين ، لو كانو به عاملين .

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف المرسلين ، وخاتم النبيين، ورحمة الله للعالمين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن من أجل النعم ، وأعظم القرب ، تدبر آيات الكتاب الكريم ، الذى أنزله الله سبحانه وتعالى نوراً ودستوراً ، ختم به رسالات السماء ، وكلماته لهداية البشر .. فجاء جامعاً لكل الرسالات ، وزاد عليها زيادة تناسب عموم الدعوة وخلودها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وكما جاء الكتاب جامعا .. نزل محفوظاً بعناية الله تعالى ، إذ تكفل بحفظه، حتى يظل نبراسا هاديا للبشرية من ضلاضتها، مخرجا لها من ظلماتها.

ولقد أدرك الرعيل الأول من سلفنا الصالح مكانة القرآن ، وأثره فى حياة القلوب ، وتزكية النفوس ، وإزكاء العقول ، فقاموا بحقه خير قيام ، تلاوة ، وسماعاً ،

وحفظاً ، وتدبراً ، وفهماً ، وعملاً ، واستنباطا منه لما يهديهم إلى الحق من الأحكام والحكم ، والآداب والسنن ، والأخلاق والقيم ، التى سرت فى أرواحهم فحولتهم من أجلاف غلاظ القلوب والأكباد ... إلى مشاعل حضارة للإنسانية ، تسمو بها البلاد والعباد ...

ولقد قيض الله تعالى لكتابه على مر الأزمان علماء أجلاء ، وأئمة فضلاء .. عكفوا على دراسته ، وغاصوا فى أعماقه لاستخراج كنوزه ودرره ، وتجلية هداياته .. فاهتموا بتفسيره رواية ، فحفظوا رواياته ، ودونوها ، ونقحوها من الدخيل والعليل ، كما اهتموا به دراية فنظروا فيما لم يرد فيه نقل أو رواية ، واجتهدوا فى تفسيره اجتهاداً مبنيا على أسس معرفية ، وقواعد منهجية ، وضعوها لضبط الفكر عند النظر فى النص .

وقد شجعهم على ذلك : دعوة القرآن المتكررة إلى التدبير والاستنباط والتفكير فى الآيات ، كقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [١] ، وقوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [٣] ، ولا يخفى ما فى معنى التدبر والاستنباط من دلالات قوية على الاجتهاد وإعمال الفكر فيما لم يرد فيه نص تفسيري ملزم .

كما أن جمعاً من الصحابة – رضوان الله عليهم – اجتهدوا فى تفسير الآيات حتى اختلفت أقوالهم فيها اختلافاً واضحاً ، ثم سار التابعون على دربهم ، فكثرت الأقوال ، وتشعبت الآراء ، ثم سار مَنْ بعدهم على هذا النحو ، فتعددت المناهج ،

[١] سورة : ص ، الآية ٢٩ .
[٢] سورة : محمد ، الآية ٢٤ .
[٣] سورة : النساء ، الآية ٨٣ .

وتنوعت المشارب ، فنشأت المدارس ، واختلفت المذاهب اختلافاً محمودًا يرتكز على ضوابط وآداب ، وتغيرت البيئات ، وتلاقحت الثقافات ... تجددت الأقوال فى التفسير بما يناسب الزمان والمكان والحال ، وهذا من فيض العطاء القرآنى الذى لا ينضب ، ولا يخلَق ، مما جعل علم التفسير ثريا قابلا للأخذ والرد، والطعن والنقد ، والاستنباط والتجديد ..

وهذا هو ما شجعنى على الإقدام على هذه الدراسة لسورة قصيرة من كتاب الله ، وهى سورة الضحى ، وذلك نظراً لكثرة معانيها مع قلة مبانيها ، ثم لما ورد فى هذه المعانى الكثيرة من أقوال بعيدة عن اللغة والظاهر ، غريبة عن سياقها الوارد ، وأقوال لا تليق بمقام النبوة والأنبياء جاء بها بعض المفسرين ، وأقوال استنتجت من نصوص واردة فى معانى بعض الآيات تحتاج إلى ضبط وتغيير .. فأحببت أن أسهم بجهد متواضع فى تحقيق تلك الأقوال وتمحيصها ، وبيان أصحها وأقربها إلى المعنى المراد ، خدمة لكتاب الله عموماً ، ولسورة الضحى خصوصاً ، تقربا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نظراً لما اشتملت عليه السورة من دفاع عنه صلى الله عليه وسلم ، وبيان لمنزلته بما من الله به عليه ، أو بما أولاه من عنايه ، إذ خاطبه بها ، وخصه بمعانيها ، وكرمه بعطائها.

هذا وجاء منهجى فى هذه الدراسة على النحو التالى :

أولاً : المقدمة وفيها : سبب اختيارى لهذا البحث ، ومنهج دراسته .

ثانياً : التمهيدى بين يدى السورة ، ويشتمل على : اسمها ، ومكان نزولها،وعدد آياتها ، ووجه مناسبتها لما قبلها ، ومقاصدها ، وسبب نزولها .

ثالثاً : تفسير السورة آية ... آية ، ببيان معانى مفرداتها ، وأصلها اللغوى ، وصلتها بما قبلها ، وسبب نزولها إن وجد ، والآثار الواردة فيها ، وأقوال المفسرين ، والترجيح بين الأقوال ، وذكر بعض المعانى الإشارية الواردة فيها ، واستخراج

القضـايا الموضـوعية المتعلقـة بالآيـات مـع دعمهـا بالآيـات القرآنيـة والأحاديـث النبوية .

هذا .. ولا يخلوا بحث من خلل ، ولا كلام بشر من زلل ، إلا من عصمه الله، وحسبى أنى اجتهدت فى خدمة كتاب الله ، والتوفيق من الله أولاً وآخرا .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفعني، وينفع والدىّ وذريتى به يوم الدين ... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

سـورة الضحـى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَى{١} وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى{٢} مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى{٣} وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى{٤} وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى{٥} أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى{٦} وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى{٧} وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى{٨} فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ{٩} وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ{١٠} وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ{١١} ﴾.

تمهيد بين يدي السورة :

اسمها ، مكان نزولها ، عدد آيتها :

سورة الضحى – أو سورة والضحى بإثبات الواو كما فى صحيح البخارى [١] – سورة مكية باتفاق ، بل هى من أوائل السور التى نزلت فى مكة ، وهذا واضح من سبب نزولها كما سيأتى ، وقد أخرج ابن الضُّريس فى فضائل القرآن عن ابن عباس : " كان أول ما أنزل من القرآن " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ " ، ثم "ن " ، ثم " يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ "، ثم " يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ "، ثم " تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ " ، ثم " إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ "، ثم " سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى " ، ثم " وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى " ، ثم " وَالْفَجْرِ "، ثم " وَالضُّحَى " ثم " أَلَمْ نَشْرَحْ " ، ثم " وَالْعَصْرِ " .... " [٢] ، وروى عنه أيضا قال : " نزلت سورة وَالضُّحَى بمكة " [٣] .

وآياتها : إحدى عشرة أية بلا اختلاف . [٤] ، وكلمها أربعون ، وحروفها مائة واثنان وسبعون [٥] ، وهى أول سورة فى قصار المفصل [٦] .

[١] صحيح البخارى : كتاب التفسير ، سورة والضحى .

[٢] الإتقان فى علوم القرآن : للسيوطى ٢٦ ، ٢٧ .

[٣] وأورده السيوطى : فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٤٠٢/٦ من رواية ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى .

[٤] فنون الأفنان فى عيون علوم القرآن : لابن الجوزى ، ص ٣٢٣ .

[٥] تفسير النيسابورى : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، ٣٣٨٦/٤ .

[٦] المفصل : هو قصار السور ، وسمى بذلك لكثرة الفصول التى بين السور بالبسملة ، واختلف فى أوله على اثنى عشر قولاً أصحها : أن أوله " ق " ، وللمفصل طوالُ ، وأوساط ، وقصار : فطواله إلى " عَمَّ "، وأوساطه إلى " الضحى " ، وقصاره منها إلى آخر القرآن . (الإتقانَ فى علوم القرآن للسيوطى ١٨٠/١ ، ١٨١) .

وكتب فى المصحف " والضحى " بألف فى صورة الياء ، مع أن أصل ألفه الواو لأنهم راعو المناسبة مع أكثر الكلمات المختومة بألف فى هذه السورة ؛ فإن أكثرها منقلبة الألف عن الياء ، ولأن الألف تجرى فيها الإمالة فى اللغات التى تُميل الألف التى من شأنها أن لا تُمال ، إذا وقعت مع ألفٍ تمال للمناسبة[١].

وجه مناسبتها لما قبلها :

ووجه مناسبتها لما قبلها : ظاهر فى خاتمتها فى قوله تعالى : {وَلَسَوْفَ يَرْضَى{٢١} مع قوله تعالى هنا لنبيه – ﷺ – : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ فالمعنى فى الآيتين متقارب مع الفارق المستفاد مع ذكر العطاء وجهته فى الثانية، واختلاف المخاطب فيهما ، حيث نزلت الأولى فى أبى بكر الصديق أو من اتصف بالأتقى من عموم الأمة [٢] – ﷺ – كما سيأتى – إيذانا بأن شرف التابع لشرف المتبوع .

فالصلة واضحة فى أن الله سبحانه وتعالى أكرم هذه الأمة بنبيها – ﷺ –، ومن ذلك الإكرام : أنه أعطاها من جنس ما أعطاه من خصائص ، وميزها بمثل ما فضله به من مزايا سوى ما وقع استثناؤه من غير مساواة .. قال الشاطبى فى الموافقات : " فما من مزية أعطيها رسول الله – ﷺ – سوى ما وقع استثناؤه – إلا وقد أعطيت أمته منها أنموذجا ، بل قد زعم ابن العربى : أن سنة الله جرت أنه إذا أعطى الله نبيا شيئا أعطى أمته منه ، وأشركهم معه فيه ، ثم ذكر من ذلك أمثلة ، وما قاله يظهر فى هذه الملة بالاستقراء " .

[١] تفسير التحرير والتنوين : لابن عاشور ، ٣٠/٣٩٥ .

[٢] تفسير ابن كثير / ٥٢١ حيث قال : " أي : ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات ، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك ، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها ، فإن لفظها لفظ العموم " .

وقد تكلف بعض المفسرين فى بيان وجه المناسبة بين السورتين كقول الإمام الأوسى تبعاً للإمام الرازى : لما كانت الأولى سورة أبى بكر رضى الله عنه، وهذه السورة سورة رسول الله – ﷺ – عقب جل وعلا بها ، ولم يجعل بينهما واسطة ، ليعلم أنه لا واسطة بين رسوله – ﷺ – والصديق رضى الله عنه[1] .

ثم ذكر الشاطبى ثلاثين وجها منها على سبيل الاقتصاد ، منها : الصلاة من الله تعالى ، والإعطاء إلى الإرضاء ، والشفاعة ، وشرح الصدر ، والاختصاص بالمحبة ، والشهادة على الأمم ، وغيرها [2] .

وتقديم آية سورة الليل على أية سورة الضحى لا يقدح فى الأفضلية ؛ إذ لا يشترط فيها التقدم زمانا أو مكانا أو ذكرا كما لا يخفى .

مقاصدها :

١ – بدئت هذه السورة الكريمة بإقسام الله سبحانه وتعالى تأكيداً على معيته الدائمة لنبيه – ﷺ – ومحبته له ، وأنه ما تركه منذ اختاره ولا أبغضه منذ أحبه ، وذلك رداً على من زعم ذلك من المشركين – كما سيأتى فى سبب نزولها – فأبطل الله زعمهم تسلية لنبيه وتشريفا له – ﷺ – وتأنيسا لقلبه .

٢ – بيان ما له – ﷺ – عند الله فى الآخرة من شرف عظيم ومنزلة رفيعة لا تدانيها منزلة ، فمهما أعطاه الله فى الدنيا من نبوة وكمالات فإن عطاء الآخرة خير له من عطاء الدنيا ، وذلك لأنها مشوبة بالآفات والأسقام .. والآذى والآلام التى لا يسلم منها أحد حتى الأنبياء .. لما اقتضته حكمة الله تعالى

(١) تفسير روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم و السبع المثانى للألوسى ٤٧١/١٥ ، وتفسير مفاتيح الغيب للرازى ١٩٥/١١ .

(٢) الموافقات فى أصول الشريعة : لأبى إسحاق الشاطبى ٢٤٩/٢ وما بعدها .

من طبعها على ذلك حتى الفناء والانتهاء ، تفرقة بينها وبين دار الخلد والبقاء .. ويكفى ما وعده فيها من كمال العطاء حتى تمام الإرضاء .. { وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}.. ولاشك أن فى ذلك من السرور والحبور ما يثلج صدره – ﷺ – ، ويقر عينه ، ويخفف عنه أعباء الرسالة ، ابتهاجا بهذا العطاء ... وأنسا بذلك الرضى ..

٣ – تعداد بعض نعمه ومننه تعالى على نبيه – ﷺ – منذ أن كان صغيراً يتيماً فآواه وهداه وأغناه عما سواه .. بل كانت عنايته به منذ اصطفاه .. فاصطفى له أصلاب الأخيار وأرحام الأطهار ... حتى أوجد صورته الشريفة فى هذه الدار .. وفى ذلك من تقوية فؤاده وطمأنينة قلبه ، بدوام نعمه وحبه ومعيته وألطافه ؛ ما يكمل به إيناسه وانشراحه ، ويزيد به جده واجتهاده ، وتزول به مشقته وعناؤه .

٤ – الوصية باليتيم والسائل أيا كان سؤاله – للمال أو للهداية – وما فى معناهما ، والقصد أن يتعامل مع الخلق مثل ما تعامل معه الحق ؛ من لطف وإنعام وفضل وإحسان .. ونصّ عليهما – أى : اليتيم والسائل – مقابلة لما منَ به عليه من الإيواء والهداية والإغناء ، فيعطى مما من الله به عليه شكراً له تعالى على نعمه وطلبا للمزيد من فضله .

وفى ذلك إشارة إلى أن كل معاملة بالفضل فى الكون إنما تعود إلى فضل فيض المكون .

٥ – الأمر بالتحدث بنعمة الله دائماً حالا ومقالا ، ولا يتم ذلك إلا بإظهارها .. إخلاصا وثناء وإمعانا فى شكرها ، وطلبا للمزيد من ربها ، مع البعد التام عن فتنتها والمراآة بها .. والأمر وإن كان خاصا له – ﷺ – فهو عام لأمته، وذلك مع الفارق ، لما خصه به – ﷺ – من نعم لا مطمع فيها لغيره من

البشر ، وعصمة تحفظ جنانه فيها من مراعاة غيره ، واستغراق فى بحر شكره ، ليس على قلب خطر .

سبب نزولها :

وردت روايات كثيرة فى سبب نزول هذه السورة بدؤها بما ورد فى الصحيحين .

ففى الصحيحين [١] عن جندب بن عبد الله بن سفيان البَجَلى رضى الله عنه قال : اشتكى رسول الله – ﷺ – فلم يقم ليلتين أو ثلاثا ، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك .. لم أره قَربك منذ ليلتين أو ثلاثا فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَالضُّحَى{١} وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى{٢} مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ وليس فى هذه الرواية التصريح باحتباس جبريل ،أو إبطائه على النبى– ﷺ– وإن كان مفهوما من السياق ، ومصرحا به فى روايات أخرى .

ففى البخارى [٢] عن جندب أيضا قال : احتبس جبريل على النبى – ﷺ– فقالت امرأة من قريش : أبطأ عليه شيطانه فنزلت﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾. وفى رواية له ثالثة عند البخارى [٣] قالت أمرأة : يا رسول الله ما أرى صاحبك إلا أبطأك ، فنزلت ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ .

[١] صحيح البخارى : كتاب التفسير – سورة والضحى – باب قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، وصحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير ، باب ما لقى النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين .

[٢] صحيح البخارى : أبواب التهجد ، باب ترك القيام للمريض .

[١] صحيح البخارى : كتاب التفسير : الموضع السابق .

وفى رواية له عند مسلم [١] قال : أبطأ جبريل على رسول الله – ﷺ– فقال المشركون : قد وُدِّع محمد ، فأنزل الله عز وجل ﴿ وَالضُّحَى{١} وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى{٢} مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ ومن مجموع هذه الرويات الصحيحة فى سبب نزول السورة يتبين ما يلى :

أ – أن شكايته – ﷺ – المذكورة غير محددة ، وقد أخطأ من فسرها بإصبعه– ﷺ– التى دميت فى بعض المشاهد فقال كما فى الصحيحين :[٢]

(الرجز)

هَـــل أَنـــتِ إِلّا إِصـــبَعٌ دَميـــتِ وَفـــي سَـــبيلِ اللَـــهِ مـــا لَقيـــتِ

قال الحافظ ابن حجر : " ولم أقف فى شىء من طرق هذا الحديث – أى حديث سبب النزول – على تفسير هذه الشكاية لكن وقع فى الترمذى من طريق ابن عيينة عن الأسود فى أول هذا الحديث عن جندب قال : كنت مع النبى – ﷺ– فى غار فدميت أصبعه ، فقال : " هل أنت إلا أصبع دميت ، وفى سبيل الله ما لقيت " قال : وأبطأ عليه جبريل فقال المشركون قد ودع محمد فأنزل الله : وجل ﴿وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ انتهى ، فظن بعض الشرّاح أن هذا بيان للشكاية المجملة فى الصحيح وليس كما ظن ، فإن فى طريق عبدالله بن شداد التى يأتى التنبيه عليها أن نزول هذه السورة كان فى أوائل البعثة ، وجندب لم يصحب النبى – ﷺ– إلا متأخرا كما حكاه البغوى فى معجم الصحابة عن الإمام أحمد فعلى هذا هما قضيتان حكاهما جندب إحداهما مرسلة ، والأخرى موصولة ، لأن الأولى لم يحضرها ، فروايته لها مرسلة من مراسيل

[٢] صحيح مسلم : الموضع السابق .

[٣] صحيح البخارى : كتاب الجهاد ، باب من ينكب أو يطعن فى سبيل الله .

الصحابة ، والثانية شهدها كما ذكر أنه كان مع النبى – ﷺ– ولا يلزم من عطف إحداهما على الأخرى فى رواية سفيان اتحادهما والله أعلم "[١].

ب – أن فترة إبطاء جبريل هنا كانت ليلتين أو ثلاثا وهى تختلف عن الفترة التى كانت فى ابتداء الوحى ، أما ما ورد من أحاديث تجمع بين الفترة التى كانت فى ابتداء الوحى وبين قول المشركين وتجعل ذلك سببا فى نزول السورة فإنها لم تثبت .

قال الحافظ ابن حجر بعد أن أورد بعضها : " وكل هذه الروايات لا تثبت والحق أن الفترة المذكورة فى سبب نزول والضحى غير الفترة المذكورة فى ابتداء الوحى ، فإن تلك دامت أياماً وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثا فاختلطتا على بعض الرواة ، وتحرير الأمرفى ذلك ما بينته " [٢] .

فالحاصل أن فترة الوحى عن النبى – ﷺ– وقعت مرتين : الأولى فى بدء الوحى قبل نزول سورة المدثر ، وقد اختلف فى مدتها ، والراجح أنها كانت أياما كما ذكر ابن عباس ، ولم تكن سنتين ونصفا كما روى[٣].

وهذه الفترة لم يشعر بها أحد من المشركين وذلك لعدم معرفتهم حينها بأمر الوحى ، وهذه الفترة هى المذكورة فى حديث بدء الوحى فى الصحيحين [٤]

[١] فتح البارى : ٦/٣ .

[٢] فتح البارى : ٥٧٧/٨ .

[٣] فتح البارى : ٢٢/١ ، ٢٣ ، ٣٠٢/١٢ ، ٣٠٣ .

[١] أول صحيح البخارى : باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله – ﷺ– وكتاب التفسير: سورة المدثر – باب ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾، وصحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب بدء الوحى إلى رسول الله – ﷺ– من حديث جابر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله – ﷺ– يقول وهو يحدّث عن فترة الوحى : " ثم فتر الوحى عنى فترة فبينا أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالسا على كرسى بين السماء والأرض فجئثت – أى رعبت –

وغيرهما ، والثانية هى المذكورة هنا ، والتى نزلت بسببها سورة الضحى ، وقد اختلف فى مدتها أيضا [١] والصحيح ما ثبت فى الصحيحين .

جـ – جاء ذكر المرأة مبهما فى روايات الصحيحين بينما صرحت باسمها روايات أخرى عند الحاكم وغيره [٢] فبعض الروايات تروى أنها أم جميل امرأة أبى لهب وهى العوراء ، وقيل : أروى بنت حرب بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف ، وهى أخت أبى سفيان بن حرب ، المذمومة فى سورة المسد ، لأنها كانت تضع الشوك والأذى فى طريقه – ﷺ– ، وبعض الروايات عند الحاكم والطبرى تروى أنها السيدة خديجة رضى الله عنها [٣] .

فالظاهر أن ذلك وقع منهما على اختلاف بين قوليهما ، وهذا يفسر ما ورد فى روايات الصحيحين .. فبعضهما تروى أن المرأة قالت : يا محمد إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، وأخرى فى البخارى تروى أنها قالت : يا رسول الله ما أرى صاحبك إلا أبطأك ، فالفرق فى الروايتين واضح وهو فرق يبين الفرق بين المرأتين .

فالراوية الأولى أليق بامرأة أبى لهب ، حيث قالت : يا محمد ... شيطانك وفيها من الشماتة والتهكم والأذى ما لا يخفى ، والرواية الثانية أليق بالسيدة خديجة، حيث قالت : يا رسول الله .. صاحبك ، وفى رواية .. ربك بدل صاحبك، وفيها من الشفقة والتأسف ما لا يخفى .

منه فَرقَا ، فرجعت فقلت : زملونى زملونى ، فدثرونى فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ{١} قُمْ فَأَنذِرْ{٢} وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ{٣} وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ{٤} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ{٥}﴾ – والرجز : الأوثان – ثم حمى الوحي بعد وتتابع .

[٢] تفسير القرطبى : ٩٣/٢٠ .

[٣] قال الحافظ فى الفتح ٧/٣ عن حديث الحاكم : رجاله ثقات .

[٤] وثق الحافظ فى الفتح ٥٧٧/٨ رواة رواية الطبرى من طريقين فيهما إرسال .

قال الحافظ ابن حجر : " فالذى يظهر أن كلا من أم جميل وخديجة قالت ذلك ، لكن أم جميل عبرت لكونها كافرة بلفظ شيطانك ، وخديجة عبرت لكونها مؤمنة بلفظ ربك أو صاحبك ، وقالت أم جميل : شماتة ، وخديجة : توجعا " [١].

وقد استبعد بعض المفسرين [٢] أن تقول السيدة خديجة ذلك ؛ لعلمها بأن الله تعالى لم يودع نبيه – ﷺ– ولا قلاه ، وأنه لا حاجة ولا معنى للقسم ، إذ هى تصدقه – ﷺ– من غير قسم .

أقول : وفى هذا نظر ، إذ إنها لم تقله إنكاراً ، ولا القسم متوقف على ما ذكر والله أعلم ويبقى الأمر محتملاً ، ولذلك قال ابن كثير بعد أن بين ما فى حديث خديجة عند الطبرى من إرسال فى وجهيه : " ولعل ذكر خديجة ليس محفوظاً ، أو قالته على وجه التأسف والتحزن والله أعلم " [٣] .

د – أما ما ورد فى بعض روايات البخارى من أن التى قالت ذلك امرأة من قريش ، أو ما ورد فى رواية أخرى عند الطبرى قالت امرأة من أهله ومن قومه وفى رواية ابن عساكر أنها إحدى عماته أو بنات عمه ، فلا تعارض بينها إذ لا مانع أن يكون هذا القول قد تردد بينهن وهن جميعا قرشيات من أهله وقومه .

هـ – وأما ما جاء فى رواية لمسلم من نسبة هذا القول للمشركين .. فقد أجاب على ذلك الإمام ابن حجر بقوله : " لا مخالفة لأنهم قد يطلقون لفظ الجمع ويكون القائل أو الفاعل واحدا بمعنى أن الباقين راضون بما وقع من ذلك الواحد " [٤] .

[١] فتح البارى : ٧/٣ ، ٥٥٧/٨ .
[٢] تفسير الماتريدى : ٥٥٧/١٠ .
[٣] تفسير ابن كثير : ٥٢٢/٤ .
[١] فتح البارى : ٥٧٧ .

روايات أخرى فى سبب نزول السورة :

ومن الروايات المشهورة فى سبب نزول سورة الضحى ما أخرجه الطبرانى وابن أبى شيبة فى مسنده والواحدى فى أسباب النزول وغيرهم بسند فيه من لا يعرف كما ذكر السيوطى فى أسباب النزول [١] ، والحافظ ابن حجر فى الفتح [٢]، عن خولة – وكانت خادمة رسوال الله – ﷺ– : أن جروا [٣] دخل بيت النبى – ﷺ– ، فدخل تحت السرير فمات ، فمكث نبى الله – ﷺ– أياما لا ينزل عليه الوحى – وفى رواية أربعة أيام – فقال : ياخولة : ما حدث فى بيتى ؟ جبريل عليه السلام لا يأتينى! قالت خولة : فقلت فى نفسى : لو هيأت البيت وكنسته ، فأهْوَيْت بالمكْنسة تحت السرير فإذا شىء ثقيل ، فلم أزل حتى أخرجته فإذا جرو ميت ، فأخَذته فألقيته خلف الجدار فجاء نبى الله – ﷺ– تُرْعَد لَحْيَاه [٤]، وكان إذا نزل عليه الوحى استقبلته الرِّعْدةُ ، فقال : يا خولة دثرينى ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَالضُّحَى{١} وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى{٢} مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى{٣}﴾ .

قال الحافظ ابن حجر : وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة ؛ لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب بل شاذ مردود بما فى الصحيح والله أعلم " [٥] .

[٢] أسباب نزول القرآن : للسيوطى ، ص ٤٨٢ ، ٤٨٣ .

[٣] فتح البارى : ٥٧٦/٨ .

[٣] الجرو والجروة – بكسر فسكون – : الصغير من كل شىء ، وجرو – بضم الجيم وفتحها وكسرها مع سكون الراء – الكلب والأسد والسباع كذلك . (لسان العرب . مادة : جرا) والمراد به هنا : جرو الكلب .

[١] اللحيان : حائطا الفم أو جانباه وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم من كل ذى لَحْى . (لسان العرب . مادة : لحا)

[٢] فتح البارى : ٥٧٦/٨ .

كما استبعد ابن حجر [١] أن يكون سبب نزول السورة ما روى من أن المشركين لما سألوا النبى – ﷺ– عن ذى القرنين والروح وغير ذلك ، ووعدهم بالجواب ولم يستثن ، فأبطأ عليه جبريل اثنتى عشرة ليلة أو أكثر ، فضاق صدره وتكلم المشركون فنزل جبريل بسورة الضحى وبجواب ما سألوا وبقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً{٢٣} إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً{٢٤}﴾[٢] ، وجوز ابن حجر أن تكونا قصتين مختلفتين ضمهما بعض الرواة لتقارب زمن وقوعهما . قلت : وزمن الإبطاء هنا متعارض مع ما ورد فى الصحيحين ، وهناك روايات أخرى فى سبب النزول أعرضت عنها لضعفها وعدم ملائمتها لما ورد فى الصحيحين .

وفى النهاية : فإن أصح ما قيل فى سبب نزول هذه السورة هو ما ورد فى الصحيحين .

تفسير الآيات

تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَى{١} وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ :

قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَى{١} وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ قسم من الله تعالى ، وله سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه ، وليس لخلقه أن يقسموا إلا به .

قد أقسم الله تعالى هنا بالضحى والليل إذا سجى .

أصل الضحى ومعناه عند المفسرين :

[٣] فتح البارى : ٥٧٧/٨ .

[٤] سورة الكهف : الآية ٢٣ ، ٢٤ .

أمـا الضـحى فأصـله مـن الضِّـحِّ : أى : نـور الشـمس [١] وهـو اسـم لوقـت ارتفاعها عن أفق مشرقها بعد بزوغها حتى تبيض جدا ويصفو ضوؤها فيرتفع بذلك النهار الأعلى [٢] .

وقـال الراغـب الأصـفهانى : " الضـحى : انبسـاط الشـمس وامتـداد النهـار ، وسمى الوقت به " [٣] .

وحول هذا يدور كلام كثير من المفسرين فى معنى الضحى فقال السدى: أول ساعة من النهار إذا ترحلت الشمس ، وقال قتادة : صدر النهار ، وقال قطرب : هو طلوع الشمس ، وقال مجاهد : هو ضوء النهار [٤] .

وقد رجح الإمام الطبرى أن يكون معنى الضحى هو النهار كله ، وروى فى ذلك أثرا عن قتادة [٥] ، وهو قول الفراء [٦] .

وعلل ذلك الشوكانى فى تفسيره بقوله : لما قابل الضحى بالليل دل على أن المراد به النهار كله لا بعضه [٧] كما مال إلى ذلك الإمام القرطبى [٨] أيضا مستندا إلى قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ{٩٧} أَوَ أَمِنَ

(١) لسان العرب . مادة : ضحح .
(٢) لسان العرب . مادة : ضحا .
(٣) المفردات فى غريب القرآن : ص ٢٩٦ .
(٤) تفسير النكت والعيون للماوردى : ٤٧٠/٤ .
(١) تفسير الطبرى : ٨٦٥٧/١٠ .
(٢) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى : ٢٨٠/٨ .
(٣) فتح القدير : ٤٥٤/٥ .
(٤) تفسير القرطبى : ٩٢/٢٠ .

أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ{٩٨} ﴾ [١] حيث فسر البيات بالليل والضحى فى مقابله بالنهار [٢] .

قلت : وفى ذلك كله نظر ، لأنه فى سورة الضحى لم يقابل الضحى بالليل مطلقا بل بسجوه وهو جزء من الليل ، فدل ذلك على أن الضحى جزء من النهار ، وأما فى سورة الأعراف فإن تفسيره البيات بالليل مطلقا فيه نظر إذ إطلاق البيات على جزء من الليل هو جوفه أظهر فى اللغة .

قال ابن منظور : " وأتاهم الأمر بياتا أى : أتاهم فى جوف الليل " [٣] ، كما أن تقييده البيات بالنوم فى الآية ﴿ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ وكذا مقابلته البيات بالقيلولة – وهى نوم نصف النهار – فى قوله تعالى ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [٤] مشعر بذلك ، وعلى هذا لإن المقابلة جزئية هنا أيضا فلا يلزم أن يكون معنى الضحى النهار كله بل صدره وقد كانوا أشد ما يكونون فى هذا الوقت انشغالا بالدنيا وأعمالها وهو ما عبر عنه باللعب ، وهو أسلوب قرآنى مطرد، فحذرهم من الأخذ والإهلاك فى حال نومهم أو عفلتهم وشغلهم ليكون أخذاً على غرة ، وليس المراد به حقيقة الأخذ ليلاً أو نهاراً ، كما فى قوله تعالى: ﴿حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ [٥] فاستشهاد القرطبى بأية الأعراف بعيد ، وتفسير الضحى بالنهار كله ضعيف .

قال الإمام النيسابورى : " الأكثرون على أن المراد بالضحى وقت

[٥] سورة : الكهف ، الآية ، ٩٧ ، ٩٨ .
[٦] تفسير القرطبى : ٢٤٣/٧ ، ٢٤٤ .
[٧] لسان العرب : مادة : بيت .
[١] سورة الأعراف : الآية ٤ .
[٢] سورة يونس : الآية ٢٤ .

الضحى ، وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس ويظهر سلطانها ، وقيل هو النهار كله لاقترانه بالليل فى القسم وهو ضعيف ، لأن معنى سجى سكن واستقر ظلامه أو سكون الناس فيه فيكون الإسناد مجازيا ... ولا ريب أن سجو الليل وقت استيلاء الظلام منه لا كله فهو بمنزلة الضحى من النهار " [١] .

معنى سجو الليل عند المفسرين :

وأما الليل إذا سجى : أى إذا سكن بالناس ودام ، يقال : : سجى يسجو سَجْواً وسُجُوا إذا سكن ، ومنه ليلة ساجية أى : ساكنة البرد والريح ، وعين ساجية: إذا سكن طرفها ، وبحر ساج .

وقال الأصمعى : سُجُوُّ الليل : تغطيته للنهار مثل ما يسجى الرجل بالثوب فالمادة تدور حول السكون والتغطية " [٢] وحول هذا يدور كلام المفسرين فى معنى سجى ، فقد قال قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة وغيرهم : سجى : سكن، وقال ابن عباس والحسن : غشى بظلامه ، وعن ابن عباس أيضا : أظلم ، وقال الضحاك: غطى كل شىء ، وقال سعيد بن جبير : أقبل ، وقال مجاهد : استوى[٣]. وهى معانٍ متقاربة عند التحقيق إلا أن القول الأول هو الأشهر فى اللغة [٤] والأولى عند أهل التفسير إذ عليه جمهورهم [٥] .

أقوال بعيدة وغريبة للمفسرين فى معنى : الضحى وسجو الليل :

[٣] غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى : ٣٣٨٦/٤ .

[١] لسان العرب : مادة : سجا .

[٢] تفسير القرطبى : ٩٢/٢٠ ، والماوردى : ٤٧٠/٤ .

[٣] تفسير القرطبى ٩٣/٢٠ .

[٤] فتح القدير : ٤٥٥/٥ .

أما ما روى عن ابن عباس فى تفسيرها : إذا ذهب [١] فهو بعيد ولا وجه له فى اللغة ، وكذا أبعد من عَيَّنَ الضحى أو الليل ، فالضحى هو الذى كلم الله فيه موسى ، والليل ليلة المعراج وهو مروى عن جعفر الصادق رضى الله عنه ، أو الضحى هى الساعة التى خر فيها السحرة سجدا لأنها كانت ساعة الضحى كما ذكر القرآن ﴿ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [٢]) ، وكما أبعد من جعل المقسم به مضافا مقدراً ففيه إضمار تقديره ورب الضحى ، إذ لا ضرورة تدعو إليه ، وكذا من جعل الضحى كناية عن الحر [٣] كقوله : ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾[٤].

وأبعد من هذا كله من فسر الضحى بنور الجنة ، والليل إذا سجى بظلمة النار ، أو بعباد الله الذين يعبدونه فى ووقت الضحى ، وعباده الذين يعبدونه بالليل إذا أظلم ، أو بالنور الذى فى قلوب العارفين كهيئة النهار ، والسواد الذى فى قلوب الكافرين كهيئة الليل [٥] أو بالنبى محمد – ﷺ– وبما ارتقى إليه فى ليلة الإسراء والمعراج [٦] ، وغير ذلك مما لا يصح بعضه إلا من طريق الإشارة .

وقد أبعد وأغرب الإمام النسيابورى حيث قال تابعاً للإمام فخر الدين الرازى : " لا استبعاد فيما يذكره الواعظ ، من تشبيه وجه محمد – ﷺ– بالضحى، وشعره بالليل . ومنهم من قال : الضحى : ذكور أهل بيته ، والليل : إناثهم ، أو الضحى : رسالته ، والليل : زمان احتباس الوحى ، ويحتمل أن يقال الضحى: نور علمه الذى به يعرف

[٥] تفسير الطبرى : ٨٦٨٣/١٠ .

[٦] سورة طه : الآية ٥٩ .

[٧] تفسير الماتريدى تأويلات أهل السنة : ٥٥٦/١٠ .

[٨] سورة طه : الآية ١١٩ .

[١] أنظر جميع هذه الأقوال السابقة فى تفسير القرطبى : ٩٢/٢٠ ، ٩٣ .

[٢] الفيوضات الربانية بتفسير بعض الآيات القرآنية للسيد أحمد بن إدريس الشريف الحسنى المغربى : ٩٠/١ ، ٩١ .

المستور من الغيوب ، والليل : عفوه الذى به يستر جميع العيوب ، أو الضحى : إقبال الإسلام بعد أن كان غريبا ، والليل إشارة إلى أنه سيعود غريبا ، أو الضحى : كمال العقل ، والليل : وقت السكون فى القبر ، أو أراد أقسم بعلانيتك التى لا يرى عليها الخلق عيبا ، وبسرك الذى لا يعلم عليه عالم الغيب عيبا " [١] ، إذ أكثر هذه الأقوال بعيدة غريبة لا تصح عبارة ولا إشارة إذ لابد فى ضوابط الإشارة من وجود مناسبة بينها وبين ظاهرة التفسير فما علاقة ذكور أهل بيته ، وكمال العقل بالضحى ؟ ، فالأولى تنزيه التفسير من هذه الأقوال الكثيرة التى لا تفيد بل تضر ، والاقتصاد فى الإشارة على ما ظهر منها وصح معناه .

سر الإقسام بالضحى وسجو الليل :

إذا كان الأصل فى القسم أن لا يكون إلا بما يعظم لذاته أو لما يتعلق به ، فإن إقسامه تعالى بالضحى والليل للفت الانتباه إلى أمرين :

الأول : إلى كونهما آيتين عظمتين من آياته الدالة على قدرته ، قال الإمام الماتريدى : " فإن كان المراد من الضحى : هو ضوء النهار ، ومن الليل إذا سجى : ظلمته ، فيخرج القسم به على أنه ظلمة الليل تستر الخلائق كلهم فى طرفة عين ، وكذلك ضوء النهار يكشف الستر ، ويجلى بطرفة عين جميع الخلائق ، من غير أن يعلم أحد ثقل ذلك الستر ، أو خفة ذلك الضوء ، فأقسم بذلك لعظيم ما فيها من الآية . وإن كان المراد منه نفس الليل والنهار ، فالقسم بهما لما جعل فيهما من المنافع الكثيرة [٢] .

والثانى : إلى زمانيهما المتضمن شعائر و أعمالا معظمة فى الدين ، فالضحى وقت صلاته ، وهو وقت السعى على المعاش المأمور به لاستمرار حركة الحياة

[٣] غرائب القرآن ورغائب الفرقان : ٣٣٨٧/٤ ، ومفاتيح الغيب : ١٩٦/١١ .

[١] تفسير الماتريدى : ٥٥٦/١٠ .

حفاظا على وظائف العبودية ، والليل هو وقت صلاته أيضا التى هى أفضل صلاة بعد المكتوبة [١] ، كما أنه – حين سكونه بأهله – وقت التجلى العظم الذى يتجلى الله فيه على عبادة بإجابة دعائهم ومغفرة ذنوبهم ، كما أنه وقت راحة العباد ظاهرا وباطنا بالانقطاع عن الخلق للحق . هذا هو الظاهر من خصوصية القسم بالضحى والليل إذا سجى .

وقد استنبط بعض المفسرين [٢] سر خصوصية القسم هنا من بعض ما ورد فى تفسير المقسم به من عبارة ظاهرة أو إشارة باطنة .

أما أهل العبارة فقالوا : أقسم الله بالضحى لأنه الساعة التى كلم الله فيها موسى عليه السلام ، والتى ألقى السحرة فيها سجدا لقوله تعالى﴿ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [٣] ، وأقسم بالليل لوقوع الإسراء والمعراج فيه ، فاكتسب كل واحد منهما شرف ما وقع فيه من حدث ، لكونه كان ظرفا له .

وأما أهل الإشارة فقد جعلوا سر الخصوصية أن يكون القسم فى نفسه دليلا وبرهانا على المقسم عليه [٤] حيث فسروا الضحى به– ﷺ – ، أو بضحوة نهار قلبه عند انتشار شمس روحه على بشريته – ﷺ– [١] ، والليل بعروجه – ﷺ– .

[٢] ففى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه : كتاب الصيام ، باب فضل صوم المحرم عن أبى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله – ﷺ– : " أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة الصلاة فى جوف الليل ، وأفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم " .

[١] تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبى السعود ٢٦٨/٥ ، والبحر المديد لابن عجيبة ٤٧٠/٦ ، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية المجلد الثالث ، الحزب الستون ص ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ .

[٢] سورة طه : الآية ٥٩ .

[٣] الفيوضات الربانية بتفسير بعض الآيات القرآنية : للسيد أحمد بن إدريس ٩١/١ .

مناسبة القسم لسبب النزول :

أما مناسبة القسم بالضحى والليل إذا سجى لما ورد فى سبب النزول أو لجواب القسم فقد قال ابن القيم : فتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذى يوافى بعد ظلام الليل ، للمقسم عليه وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه : ودع محمداً ربُّه ، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحى ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه [٢] .

ويمكن أن يقال فى ذلك أيضا : إن القسم جاء بأمرين : بالضحى والليل إذا سجى على أمرين : هما : ما ودعك ربك وما قلى ، فلما كان الضحى رمز الإشراق والإشراف ناسب أن يقسم به على نفى ما زعموا من تركه ووداعه ، إشارة إلى أن إشراق أنوار الحضرة عليه بالوحى والمعية دائم لا ينقطع ، ولما كان الليل رمز السكون والراحة والخلوة بالحبيب ناسب أن يقسم به على نفى ما زعموا من البغض وانقطاع حبل الوصل بشارة بدوام الحب المقتضي لسكون النفس ، وراحة القلب ، وطمأنينة الروح بكمال الأنس .

تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ :

وقوله تعالى : **﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾** : جواب القسم أى : ما تركك ربك وما أبغضك .

معنى ودعك :

وأصل ودع من التوديع ، والتوديع أصله من الدَّعة ، وهو الدعاء للمسافر بأن يتحمل الله عنه كآبة السفر وأن يبلغه الدعة ، ثم صار متعارفا على تشييع

---

[٤] هذا القول نسبه ابن عجيبة فى البحر المديد : الموضع السابق للإمام القشيرى ولم أجده فى تفسيره .

[١] التبيان فى أقسام القرآن : ص ٤٦ .

المسافر وتركه [١] ، ثم استعمل فى الترك مطلقا وإن كان استعماله هنا فى المعنى الأول ألطف للإشارة إلى أن الترك لو تصور فهو مؤقت وليس عن بغض بل بما تقتضيه الضرورة مع رجاء العود كحال المسافر ، ولأن الوداع يكون بين الأحباب ومن تعز مفارقته ، وهو الأليق بمقامه – ﷺ – عند ربه .

قال المتنبى : (الطويل)

حشاشةُ نفسٍ وَدَّعت يوم ودَّعوا فلم أدر أى الظاعنين أُشيِّعُ

وقد قرأ ابن عباس وعروة بن الزبير وغيرهما بالتخفيف (وَدَعَكَ) وهى قراءة غير متواترة ، وقراءة العامة بالتشديد [٢] ، قال ابن منظور : " والمعنى فيهما واحد " [٣] ، وقال الزمخشرى[٤] وأبو حيان [٥] : " التوديع مبالغة فى الودع أى : الترك لأن من ودعك مفارقاً ، فقد بالغ فى تركك " . قال الألوسى : " قيل: وعليه يلزم أن يكون المنفى الترك المبالغ فيه دون أصل الترك ، مع أن الظاهر نفى ذلك فلابد أن يقال : إنه إنما نفى ذلك لأنه الواقع فى كلام المشركين الذى نزلت له الآية، أو أن المبالغة تعود على النفى فيكون المراد المبالغة فى النفى ، لا نفى المبالغة ، وقد ذكروا نظير هذين الوجهين فى قوله تعالى : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [٦] فتدبر" [٧] .

[٢] المفردات : ص ٥٣٣ .
[١] تفسير القرطبى : ٩٤/٢٠ ، ٩٥ .
[٢] لسان العرب . مادة : ودع .
[٣] تفسير الزمخشرى : ٢٦٣/٤ .
[٤] تفسير أبى حيان: البحر المحيط ٤٨١/٨ .
[٥] سورة فصلت : الآية ٤٦ .
[٦] تفسير الألوسى : ٤٧٤/١٥

والمراد : أنه لم يقطع عنه الوحى ، وإيراد اسم الرب مشعر بدوام اللطف والرعاية التامة على مقتضى مقام الربوبية .

معنى قلى :

والقلى – بكسر القاف مع فتح اللام – شدة البغض يقال : قلاه يقْليه ويقْلُوه قلىً وقَلاءً ، ويقلاه لغة طيئٍ [١] . وترك الكاف – وهى مفعول قلى – اكتفاء بالكاف الأولى أو اختصار للعلم به كما تقول : قد أعطيتك وأحسنت أى : أحسنت إليك [٢] ، قال أبو جعفر النحاس : " العرب تحذف من الثانى لدلالة الأولى، يقال : أعطيتك وأكرمت " [٣] . فهو إيجاز لفظى لظهور المحذوف أو ليجرى على نهج الفواصل بعده بعده فيوافق رؤوس الآى كقوله تعالى : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ [٤] أى: والذاكرات الله [٥]، وقيل : لئلا يواجه النبى – ﷺ – بنسبة القلى والبغض إليه وإن كان فى كلام منفى ، وذلك لطفا به – ﷺ – وشفقة عليه[٦] ، وهذا معنى لطيف لكنه لكنه لا ينطبق على ما سيأتى من قوله : " فآوى " ، " فهدى " ، " فأغنى " .

والمراد من العطف : الإتيان على إبطال جميع ما زعمه المشركون قال البغوى : أى : ما تركك منذ اختارك ، ولا أبغضك منذ أحبك [٧] ، وقال القشيرى: "

[١] المفردات : ص ٤١٢ ، ولسان العرب . مادة : قلا .
[٢] لسان العرب : الموضع السابق .
[٣] إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس ٥٠٣/٣ .
[٤] سورة الأحزاب : الآية ٣٥ .
[٥] تفسير القرطبى : ٩٥/٢٠ .
[٦] التفسير الوسيط : المجلد الثالث ، الحزب الستون ص ١٩٤٥ . : ٢٦٣/٤ .
[٧] تفسير معالم التنزيل للبغوى ٤٩٨/٤ .

وما ودعك ربك بقطع فيض النبوة والرسالة عن ظاهرك ، وما قلى بقطع فيض الولاية عن قلبك " [١] .

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ :

وقوله تعالى : **﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾** : أى : وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار الدنيا ، لأن ما أعد لك فيها أعظم مما أعطاك فى الدنيا مهما كان هذا العطاء ، فإنه مشوب بعوارض الدنيا منغص بأكدارها ، لا يسلم من آفاتها ، ويكفى أنها حقيرة زائلة حائلة فانية ، أما الآخرة فشريفة صافية عافية باقية قال الإمام ابن كثير : "وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار ، ولهذا كان رسول الله – ﷺ – أزهد الناس فى الدنيا ، وأعظمهم لها اطراحاً كما هو معلوم بالضرورة من سيرته"[٢] . .. هذا هو الظاهر فى معنى الآية .

وقال البيضاوى : " لنهاية أمرك خير من بدايته فاللام فيها للعهد أو عوض عن المضاف إليه ، فإنه – ﷺ – لا يزال يتصاعد فى الرفعة والكمال " [٣] وقال النيسابورى : " ويحتمل أن يراد : وللأحوال الآتية خير لك من الماضية فيكون وعدا بإتمام نوره وإعلاء أمره " [٤] . وهو خلاصة قول الرازى [٥] . قلت : ويكون هذا – من باب الإشارة – وعدا بعدم تكرر فترة الوحى بعد ذلك ، أما من حيث الظاهر فبعيد .

[٨] تفسير ابن عجيبة : ٤٧١/٦ ، ولم أجده فى لطائف الإشارات .
[١] تفسير ابن كثير: ٥٢٢/٤ .
[٢] أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٦٠٣/٢ .
[٣] غرائب القرآن ورغائب الفرقان : ٣٣٨٨/٤ .
[٤] تفسير مفاتيح الغيب : ١٩٧/١١ .

واللام فى قوله ﴿ وَلَلْآخِرَةُ ﴾ إما لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة ، أو جواب لقسم محذوف ، ويجوز أن تكون الجملة معطوفة على جواب القسم المتقدم[١].

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها :

وأيا كان الأمر فوجه اتصال هذه الآية بما قبلها ظاهر ، وهو أن الله سبحانه وتعالى لما أقسم على نفى ما زعمه المشركون مما يؤكد بقاء معيته بوحيه ومحبته ورعايته لنبيه – ﷺ – بقاء لا تعتريه شائبة انقطاع ، وكان فى هذا من التشريف والتكريم لنبيه – ﷺ – ما يجعله فى المحل الأثنى والمنزلة الأعلى مما قد يتبادر إلى الذهن أنه لا مزيد على هذا ، بين جل جلاله أن ما أعده لنبيه فى الآخرة من العطاء أشرف وأعظم ، لأن عطاء الدنيا كله مشوب بمضار أكدارها وآفاتها ، ومن ذلك ما زعموه ، أما الآخرة فخالصة لك حيث لا معارض لك فيها ولا معاند ، وفى هذا أيضاً من وجوه الاتصال والمناسبة بين الآيتين ما يجعل هذه الآية زيادة فى التسلية له وللتسرية عنه عما جاء فى الآية التى قبلها من زعمهم الباطل ؛ فإنهم إن كانوا فى الدنيا قد استطاعوا إيذاءك والنيل منك فإنهم فى الآخرى لن يستطيعوا الوصول إليك .

والآخرة مؤنث الآخر ويقابل به الأول والأولى مؤنث الأول ، وقد غلب

لفظ الآخرة على دار البقاء كما غلب لفظ الأولى على دار الفناء ، قال الراغب : ويعبر بالدار الآخرة عن النشأة الثانية ، كما يعبر بالدار الدنيا عن النشأة الأولى ، وربما ترك ذكر الدار [٢] .

واللام فى الآخرة والأولى للتعريف أو للجنس إشارة إلى أن كل آجل أمره خير من عاجله فلا يزال يزداد قوة ورفعة إلى غير نهاية .

[٥] حاشية الصاوى على الجلالين : ٢٧٧/٤ .

[١] المفردات : ص٢٣ .

قال الإمام الصاوى فى حاشيته على الجلالين : " وقال بعض أهل الإشارات: فى الآية إشارة إلى أنه – ﷺ – دائماً يترقى فى الكمالات إلى غير نهاية، فمقامه فى المستقبل أعلى منه فى الماضى وهكذا " [١] .

و﴿ خَيْرٌ ﴾ أفعل تفضيل محذوفة الهمزة ، بدليل ذكر المقابل قال النحاس: " الأصل أخير ثم خفف لكثرة الاستعمال " [٢] .

واللام فى قوله : ﴿ لَّكَ ﴾ للاختصاص ، لأن الآخرة لا تكون خيرا مطلقا لكل أحد ، وإن كان لأمته فى جملتها نصيب مما خصه الله به – ﷺ – من خصائص ومزايا على ما سيأتى بيانه تفصيلاً فى الآية التى بعدها .

فإذ كان الله – عز وجل – قد قال له – ﷺ – : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ فقد قال لأمته : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [٣] وقال : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [٤] وقال : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾[٥] وقال: ﴿وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٦] وقال : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{١٦} وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى{١٧} ﴾[٧] أى : أفضل لكم لخلوصها ودوامها .

[١] حاشية الصاوى على الجلالين : ٢٧٧/٤ .
[٢] إعراب القرآن : ٥٠٣/٣ .
[٣] سورة النساء : الآية ٧٧ .
[٤] سورة الأنعام : الآية ٣٢ .
[٥] سورة النحل : الآية ٣٠ .
[٦] سورة الزخرف : الآية ٣٥ .
[٧] سورة الأعلى : الآيتان ١٦ ، ١٧ .

وقال العلامة ابن عاشور : " واللام فى قوله ﴿ لَّكَ ﴾ لام الاختصاص ، أى: خير مختص بك وهو شامل لكل ما له تعلق بنفس النبى – ﷺ – فى ذاته وفى دينه وفى أمته " [١] .

قلت : ولاشك أن هذا مقيد بالتوحيد متفاوت على قدر الاتباع كما سيأتى . وقد قال الإمام النيسابورى " وفى تخصيص الخطاب إشارة على أن فى أمته من كانت الآخرة شرا إليه إلا أن الله ستره عليهم " [٢] .

وهذه الآية : أصل من أصول الزهد فى الدنيا والتقلل منها ، والإقبال على الآخرة والتزود لها ، وبين الآخرة والأولى طباق ، وهو من المحسنات البديعية .

تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ :

وقوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ وعد كريم من الله تعالى لنبيه – ﷺ – بالإعطاء حتى الإرضاء ، وليس وراء ذلك مطلب ، وهى كالبيان لما قبلها .

واللام لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة ، وتعين تقدير مبتدأ محذوف لأن لام الابتداء لا تدخل إلا على جملة من مبتدأ وخبر أى : ولأنت سوف يعطيك وبذلك جزم الزمخشرى [٣] ، وقيل : اللام لام القسم .

(١) التحرير والتنوير : ٣٠/٣٩٧ .

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان : ٤/٣٣٨٨ .

(٣) علل ذلك بأن لام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد (الكشاف ٤/٢٦٤) ، وقال أبوالسعود : " وقيل هى للقسم ، وقاعدة التلازم بينها وبين نون التوكيد قد استثنى النحاة منها صورتين إحداهما : أن يفصل بينها وبين الفعل بحرف التنفيس كهذه الآية ، = = وكقوله : والله سأعطيك ، والثانية : أن يفصل بينهما بمعمول الفعل كقوله تعالى : ﴿لإِلَى الله تُحْشَرُونَ ﴾ (آل عمران : ١٥٨) (تفسير أبى السعود ٥/٢٦٩) .

والجمع بين حرفى التوكيد والتأخير لإفادة أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر فلحكمة [١] .

قال النحاس : " وفى حرف عبدالله " ولسيعطيك " وهما واحد عند سيبويه، وقال الفراء : حذفت الواو والفاء كما قالوا : أيش عندها ، ولاب لك " [٢] .

وحذف المفعول الثانى لـ﴿ يُعْطِيكَ ﴾ للتعميم ، وجىء بلفظ ﴿ رَبُّكَ ﴾ مضافا إلى ضمير المخاطب لما فى لفظ الرب من التأنيس والعطف ولما فى الإضافة من التشريف والعناية ، أما فاء التعقيب فى ﴿ فَتَرْضَى ﴾ فلإفادة عموم العطاء وكثرته وسرعة نفعه مما يجعل الرضا حاصل عنده [٣] .

عموم معنى العطاء وشموله لعطاء الدنيا والآخرة :

والظاهر عموم العطاء حتى يشمل ما أعطيه النبى – ﷺ – فى الدنيا والآخرة من العطايا الإلهية والمنح الربانية . وهذا ما ذهب إليه كثير من المفسرين كالإمام الرازى [٤] ، والبيضاوى [٥] . وأبى السعود [٦]، والوشكانى [٧]، وابن عجيبه[٨] ،

[١] تفسير الزمخشرى : ٢٦٤/٤ ، وابى السعود : الموضع السابق .
[٢] إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس : ٥٠٤/٣ .
[٣] تفسير التحرير والتنوير : ٣٩٨/٣٠ .
[٤] تفسير الرازى : ١١/ ١٩٩ .
[٥] تفسير البيضاوى : ٢/ ٦٠٣ .
[٦] تفسير أبى السعود : ٢٦٩/٥ .
[٧] تفسير الشوكانى : ٤٥٥/٥ .
[١] تفسير ابن عجيبة : ٤٧١/٦ .

والصاوى [١] وغيرهم خلافا لمن قصره على عطاء الآخرة فقط كابن جرير الطبرى [٢] ، وابن كثير [٣] ، وغيرهما .

وقال أبوجعفر محمد بن على بن الحسين ، والحسن : هى الشفاعة [٤] ، وقال وقال قتادة : هى الجنة [٥] .

وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – : " إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ولسوف يعطيك ربك فترضى " [٦] وهذا كله ليس دليلا على قصر العطاء على الآخرة ، وما ورد فى سبب نزول الآية يؤيد شمول العطاء .

سبب نزول هذه الآية :

أخرج الطبرانى فى الكبير [٧] والبيهقى فى دلائل النبوة [٨] والحاكم وصححه [٩] والواحدى فى أسباب النزول [١٠] والسيوطى فى أسباب

[٢] حاشية الصاوى : ٢٧٨/٤ .
[٣] تفسير الطبرى : ٨٦٨٦/١٠ .
[٤] تفسير ابن كثير : ٥٢٢/٤ .
[٥] تفسير ابن كثير : ٥٢٣/٤ ، والدر المنثور ٤٠٤/٦ .
[٦] الدر المنثور : الموضع السابق .
[٧] الدر المنثور : الموضع السابق ، وتفسير ابن كثير : الموضع السابق .
[٨] المعجم الكبير للطبرانى : ٢٧٧/١٠ .
[٩] دلائل النبوة : ٦١/٧ .
[١٠] المستدرك ٥٧٣/٢ ، وتعقبه الذهبى : تفرد به عصام بن روادّ عن أبيه وقد ضُعف ، لكن ذكره ابن حبان فى الثقات ٥٢١/٨ .
[١١] أسباب نزول القرآن : ص ٤٨٣ .

النزول[١] وفى الدر المنثور [٢] عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : عرض على رسول الله – ﷺ – ما هو مفتوح على أمته من بعده فسر بذلك ، فأنزل الله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ فأعطاه ألف قصر من لؤلؤ ترابه المسك، فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج والخدم ، وقال ابن كثير : رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من طريقه ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف [٣] .

فهذا يدل على شمول العطاء مؤيد لعموم الآية .

المقصود بعطاء الدنيا وعطاء الآخرة فى حقه – ﷺ – :

أما ما روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : دخل رسول الله – ﷺ – على فاطمة رضى الله عنها وهى تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل فلما نظر إليها بكى وقال : " يا فاطمة تجرَّعى مرارة الدنيا لنعيم الأبد " فأُنزل عليه ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ [٤] ، فلا يتعارض مع ما سبق ، إذ ليس هذا هو المقصود بعطاء الدنيا فقد عاش– ﷺ – حياته كلها على الزهد وخشونة العيش والتقلل ، بل المقصود بعطاء الدنيا كمال النفس ، والقرآن ، وعموم الرسالة وجوامع الكلم ، والنصر بالرعب ، والعصمة ، ومفاتيح خزائن الأرض ، وشرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، وكمال الدين ، وعلوم الأولين والآخرين ، والنصر ، والتمكين ، والفتوح ، وانتشار دعوته فى العالمين ، وكونه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وغير ذلك مما ظهر فى حياته وبعد مماته من مظاهر العطاء والتكريم.

[١] أسباب نزول القرآن : للسيوطى ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ .

[٢] الدر المنثور : ٤٠٣/٦ .

[٣] تفسير ابن كثير : ٥٢٣/٤ .

[٤] عزاه الحافظ العراقى : لأبى بكر بن لال فى مكارم الأخلاق ، بإسناد ضعيف . (هامش الإحياء٢٤٦٤/٤) ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور ٤٠٤/٦ ، بنحوه من رواية العسكرى فى المواعظ ، وابن مردويه، وابن لال ، وابن النجار عن جابر رضى الله عنه.

وأما عطاء الآخرة أوسع وأرفع ، إذ يتناسب مع قدرها وبقائها ، فمنه أنه أول من ينشق عنه القبر ، وأول من يجتاز الصراط هو وأمته ، وأول من يقرع باب الجنة ، وأول من يدخل الجنة هو وأمته ، وأول شافع وأول مشفع ، وله السيادة، والشهادة ، والوسيلة ، والفضيلة ، والمقام المحمود ، والكوثر ، ولواء الحمد ، ومنبره على حوضه ، والسجود تحت العرش ، وله كرسى عن يمين العرش ، وأكثر الأنبياء تبعا ، وأمته أكثر أهل الجنة ، وإرضاؤه – ﷺ – فى أمته، وغير ذلك من مظاهر تكريم الله له – ﷺ – فى الآخرة مما جاءت به الآيات وصحت به الأحاديث .

إرضاؤه – ﷺ - فى أمته :

ومن أهم نفحات هذا العطاء الأخروى للنبى – ﷺ – أن الله تعالى سيرضى نبيه – ﷺ – فى أمته ، ولا يسوؤه فيها ، وهو غاية الإكرام والإنعام .

فقد روى الإمام مسلم فى صحيحه[١] عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى– ﷺ – تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم :﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢] ، وقال عيسى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٣] فرفع يديه وقال : " اللهم ! أمتى أمتى " وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد ، وربك أعلم ، فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله– ﷺ – بما قال ، وهو أعلم ، فقال الله : " يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك " ولا نسوؤك " أى : لا نحزنك .

[١] كتاب الإيمان ، باب دعاء النبى– ﷺ – لأمته ، وبكائه شفقة عليهم .
[٢] سورة إبراهيم : الآية ٣٦ .
[١] سورة المائدة : الآية ١١٨ .

قال الإمام النووى : " وهذا من أرجى الأحاديث لهذه الأمة أو أرجاها ... وهو موافق لقول الله عز وجل : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ [١] .

فإرضاؤه – ﷺ – فى أمته من أفراد هذا العطاء الوارد فى هذه الآية ، ولذا قال الإمام أبو جعفر محمد بن على بن الحسين رضى الله عنهم لأهل العراق: إنكم تقولون يا معشر أهل العراق إن أرجى آية فى كتاب الله عز وجل : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾[٢] قالوا : إنا لنقول ذلك . قال : لكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية فى كتاب الله عز وجل : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ وهى الشفاعة[٣].

معنى إرضائه - ﷺ - ، وأنه لا يرضى وواحد من أمته فى النار :

ومعنى إرضائه – ﷺ – فى أمته أى : شفاعته فيهم ، فهو مفسر بالشفاعة، وقد سبق ورودها فى معنى الآية ، وهو أيضا ما رواه الإمام على فى تفسيرها أن رسول – ﷺ – قال : " أشفع لأمتى حتى ينادينى ربى عز وجل

أرضيت يا محمد ؟ فأقول : نعم يارب رضيت " [٤] .

[٢] شرح النووى على صحيح مسلم : ٨٠/٢ .

[٣] سورة الزمر : الآية ٥٣ .

[٤] حلية الأولياء : لأبى نعيم ١٧٩/٣ . وتفسير البغوى : ٤٩٨/٤ .

[١] أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء : " لم نكتبه إلا من حديث حرب بن شريح ، ولا رواه عنه إلا عمرو بن عاصم وهو بصرى الثقة " ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور من رواية ابن المنذر وابن مردويه وأبى نعيم ضمن الأثر السابق ، وعزاه فى مجمع الزوائد للبزار والطبرانى فى

وعلى هذا المعنى أيضا تحمل كل النصوص الواردة عن ابن عباس فى تفسير الآية من أنه – ﷺ – : " لا يرضى وواحد من أهل بيته أو أمته فى النار"[١]، وفى رواية له قال : " من رضا محمد – ﷺ – ألا يدخل أحد من أهل بيته النار"[٢]، وفى رواية له قال : " رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم " [٣] .

ويرى هذا مرفوعا أيضا عن على رضى الله عنه أنه – ﷺ – لما نزلت هذه الآية قال : " إذا والله لا أرضى وواحد من أمتى فى النار " [٤] .

فهذا كله مفسر بالشفاعة ، مقيد بضوابطها ، فلا يزال النبى – ﷺ – يشفع فى أمة إجابته ويشفع .. حتى يخرج من النار كل من مات على التوحيد والاتباع .. أما من مات على غير ذلك فلا شفاعة له .

فينبغى الحذر من الاغترار بالإطلاقات الواردة فى أمثال هذه النصوص والاتكال عليها أشد الحذر ، والرجوع إلى عموم الضوابط الواردة المقيدة فى النصوص الأخرى كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾[٥] .

قال ابن عباس : الذين ارتضى لهم شهادة أن لا إله إلا الله ، وقال مجاهد: لمن رضى عنه [٦] .

الأوسط قال : وفيه محمد بن أحمد بن زيد المدارى ولم أعرفه وبقية رجاله وثقوا على ضعف فى بعضهم . (مجمع الزوائد ٣٧٧/١٠) .

[٢] الدر المنثور : ٤٠٤/٦ .

[٣] أخرجه الطبرى فى تفسيره : ٨٦٨٧/١٠ .وفى إسناده الحكم بن ظهير متروك ٤٠٤ .

[٤] أورده السيوطى فى الدر المنثور : ٤٠٤/٦ من رواية البيهقى فى الشعب (شعب الإيمان برقم ١٤٤٥) .

[٥] تفسير القرطبى : ٩٦/٢٠ ، وتفسير النيسابورى : ٣٣٨٨/٤ .

[١] سورة الأنبياء : الآية ٢٨ .

[٢] تفسيرالطبرى : ٥٦٨٤/٧ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [١].

وقوله – ﷺ – : " أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة ، من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه " [٢].

وقوله – ﷺ – : " لكل نبى دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته ، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة ، فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً " [٣] .

وقوله – ﷺ – : " ألا ليزادن رجال عن حوضى كما يزاد البعير الضال أناديهم : ألا هلم ! فيقال " إنهم قد بدلوا بعدك فأقول : " سحقا سحقا " [٤] .

وفى النهاية " فإنه – ﷺ – لا يرضى إلا بما يُرضى مولاه ، وبهذا يمكن فهم هذه النصوص الواردة عن ابن عباس وغيره فى معنى إرضائه – ﷺ – فى الآية ، وإعمالها ؛ دون حاجة إلى ردها أو رفضها كما فعل ابن عقيل ، وابن القيم رحمهما الله [٥] .

[٣] سورة النساء : الآية ٤٨ .

[٤] صحيح البخارى : كتاب العلم ، باب الحرص على الحديث ، عن أبى هريرة .

[٥] متفق عليه من حديث أبى هريرة ، وأنس ، واللفظ لمسلم ، صحيح البخارى : كتاب الدعوات، باب لكل نبى دعوة مستجابة ، وكتاب التوحيد ، باب قوله تعالى :﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ (الكهف / ١٠٩) ، وصحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب اختباء ، باب اختباء النبى – صلى الله عليه وسلم – دعوة الشفاعة لأمته .

[٦] أخرجه مسلم فى صحيحه : كتاب الطهارة ، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل فى الضوء، عن أبى هريرة .

[١] كلامهما فى ذلك متشابه حيث ردا هذا القول : بأنه – ﷺ – ، لا يرضى وفى النار من أمته أحد ، وعدُّوه من الكذب عليه – ﷺ – ، لما يترتب عليه من أنه – ﷺ – لا يرضى بما

وقد قال بعض العارفين فى معنى الآية : (الوافر)

قَرأنـا فـي الضُـحى وَلَسَـوف يُعطـى فَســـرّ قُلوبُنـــا هـــذا العَطـــاء
وَحاشـــى يـــا رَســـول اللَـــهِ تَرضـــى وَفينـــا مِـــن يَعـــذب أَو يســـاء [١]

نسأل الله سبحانه وتعالى : أن يرزقنا شفاعته ، وأن لا يحرمنا زيارته ، وأن يوردنا حوضه ، وان يسقينا بيده الشريفة شربه هنيئة مريئة لا نظمأ بعدها أبداً.

تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ :

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ تَعْدادُ أصول النعم العظمى وهى: الإيواء والهداية والإغناء ، وذلك تقوية لقلبه بالحاضر الموجود ، وإلماحٌ إلى دوام نعمه بالمترقب الموعود ، وتذكيرٌ لما حفه الله به من فيض ألطافه ، وبما أفاض عليه من مدد أوصافه .

صلة الآيات بما قبلها :

جاءت هذه الآية وما بعدها بمثابة التأكيد والتدليل على تحقق وعد الله لنبيه – ﷺ – إذ ساق له من النعم التى أفاضها عليه من مبدأ نشأته وقبل نبوته ورسالته ، ما يدل على عظيم عنايته تعالى به ، ودوام معيته له وأنه بعينه ، فماذا يكون الحال بعد إرساله ؟

يرضى به الله من تعذيب الظلمة والفسقة من أمته ، وليس الأمر – عند التأميل فيما ذكرت – كما قالا . (تلبيس إبليس لابن الجوزى : ص ٥٠١ ، والداء والدواء لابن القيم : ص ٣٤) .

[٢] حاشية الصاوى على الجلالين ، ٢٧٨/٤ .

قال صاحب التحرير والتنوير : " استئناف مسوق مساق الدليل على تحقق الوعد ، أي هو وعد جار على سنن ما سبق من عناية الله بك من مبدأ نشأتك ولطفه بك فى الشدائد باطراد " [١] .

والاستفهام تقريرى ، فالهمزة لإنكار النفى وتقرير المنفى على أبلغ وجه فإنكار النفى إثبات ، والغرض منه : التقرير أى : إقرار المخاطب به كأنه قال : قد وجدك يتيما فآوى ، ووجدك من الوجود بمعنى العلم ، والمنصوبان مفعولا وجد، وقيل : بمعنى ألفى وصادف الذى يتعدى لمفعول واحد هو ضمير المخاطب ويتيما حال من مفعوله [٢] قال الألوسى : " والمصادفة لا تصح فى حقه تعالى ؛ لأنها ملاقاة ما لم يكن فى علمه سبحانه وتقديره جل شأنه ، فلابد من التجوز بها عن تعلق علمه عز وجل بذلك " [٣] .

أصل اليتم ومعناه :

واليتيم : أصله الانفراد ومنه دُرَّة يتيمة تنبيها على انقطاع مادتها التى خرجت منها ، فاليُتْم واليَتَم : فقدان الأب قبل البلوغ ، فإذا بلغ الصبى زال عنه اسم اليتم لقوله – ﷺ – " لا يتم بعد احتلام " [٤] ، وهو فى الناس من قبل الأب ، وفى سائر الحيوانات من قبل الأم [٥] ولا يقال لمن فقد أمه من الناس: يتيم بل منقطعٌ أو عَجىٌّ ، واللطيم الذى يموت أبواه . يقال : يَتَمَ ويَتِمَ ، وأيتمه الله فهو يَتِمٌ والجمع أيتام ، ويتامى ، ويَتَمَةٌ ، وقيل : أصل اليتم : الغفلة وبه سمى اليتيم يتيما، لأنه يتغافل عن

[١] التحرير والتنوير : ٣٠/٣٩٩ .
[٢] تفسير أبى السعود : ٥/٢٦٩ ، والتحرير والتنوير : الموضع السابق .
[٣] تفسير الألوسى : ١٥/٤٨٢ .
[١] أخرجه أبوداود فى سننه : كتاب الوصايا ، باب ما جاء متى ينقطع اليتم . وصححه محققوه.
[٢] المفردات : ص ٥٥١ .

بره [١] والأول أظهر وأشهر والمراد به هنا : فقد الأب بموته فقد مات أبوه – ﷺ – وهو حمل فى بطن أمه .

معنى آوى :

وآوى وأوى بمعنى ، تقول: أويت الرجل وآويته بالقصر والمد ، إذا ضممته إليك وانزلته بك ، ويقال : أوى فلان على منزله يأوى أُويّا و وإِويّا وإواء أي : رجع إليه وعاد ، فالمادة فى أصلها تدور حول هذا المعنى [٢] وهو الظاهر هنا على القراءتين " آوى وأوى " [٣] ، والمراد : جعل له مأوى بضمه إلى من يرعاه وقيل : المعنى قراءة أوى : رحمه [٤] وهو وارد فى اللغة من أوى إليه أويَةً وأيَّةً ومأويةً ومأْواة [٥] .

والمعنى : ألم تكَن يا محمد يتيما فى صغرك ، فآويتك إلى ظل كنفي ، ولطف رعايتي بأن هيأت لك من يقوم بأمرك صورة ، وربيتك فأدبتك فأحسنت تأديبك حقيقة ، حتى أصبحت مأوى الأيتام بعد أن كنت يتيماً ، وكفيل الأنام بعد أن كنت مكفولاً .

وقال مجاهد : ألم يجدك واحدا فى شرفك لا نظير لك ، فآواك الله بأصحاب يحفظونك ويحوطونك ، على أن اليتم على معنى الأصل الأول وهو الانفراد .

[٣] لسان العرب : مادة : يتم .

[٤] لسان العرب : مادة : أوا ، ومختار الصحاح : مادة : أوى

[٥] قرأ الأشهب العقيلى " فأوى " بالقصر . تفسير ابن عطية المحرر الوجيز : ٨/٤٩٤ .

[٦] المحرر الوجيز : الموضع السابق

[٧] المفردات : ص ٤١ .

قلت : وهذا خلاف الظاهر . قال الشوكانى : " وهو بعيد جدا " [١] ، وجعله الزمخشرى من بدع التفاسير [٢] . وعلق الشيخ الغمارى على ذلك بأنه : " يجوز أن يكون من باب الإشارة " [٣] .

وقيل المعنى : ألم يجدك يتيما لم ترغب فيك المراضع فآواك إلى مرضعة تحنو عليك ، ورزقها بصحبتك الخير والبركة حتى أحبتك وتكفلتك [٤] .

وهذا تضييق للمعنى الأول المفهوم من ظاهر اللفظ ، واختزال له فى بعض عناصره ودلائله ؛ فإيواؤه – ﷺ – أعم من ذلك ، إذ لما ماتت أمه وله ست سنين هيأ له كفالة جده عبدالمطلب إلى أن توفى وله – ﷺ – ثماني سنين ، فهيأ له كفالة عمه أبى طالب الذى كان يرعاه ويحوطه وينصره بعد بعثته وهو على دين قومه إلى أن مات قبل الهجرة بقليل ، فانظر كيف كانت حمايته من مخالف له فى دينه !! وهذا كله من فيض معنى إيوائه تعالى له حسا وصورة ظاهرة ، وقال ابن عجيبة فى إشارته : " ألم يجدك يتيما فرداً من العلائق ، مجرداً مما سوى الله ، فآواك إليه، وهى طريقة كل متوجه ، لا يأويه الحق إليه

حتى يكون يتيماً من الهوى ، بل بقلب مفرد ، فيه توحيد مجرد " [٥] .

حكمة يتمه - صلى الله عليه وسلم - :

أما حكمة يتمه – ﷺ – فتربيته تعالى وتأديبه له بالفضائل والكمالات التى لا تنال بإرشاد أب ولا مؤدب ، هذا فضلا عما ينال بإرشاد الأب ، والذى غالبا ما

(١) فتح التقدير : ٥/٤٥٥ ، ٤٥٦ .
(٢) الكشاف : ٤/٢٦٤ .
(٣) بدع التفاسير لأبى الفضل عبدالله محمد الصديق الغمارى : ص ١٤٧ .
(٤) التفسير الوسيط : المجلد الثالث ، الحزب الستون ، ص ١٩٤٨ .
(١) تفسير البحر المديد : ٦/٤٧٤ .

يُحْرَمُه اليتيم فينشأ على نقائص ، أما هو – ﷺ – فقد كانت نشأته على كمالات الظاهر والباطن حتى صار أزكى العالمين نفسا ، وأنقاهم قلبا ، وأصفاهم روحا ، متحققا بقوله – ﷺ – " أدبنى ربى فأحسن تأديبى " [١] ، وبذلك كان يتمه – ﷺ – من دلائل الإعجاز والكمال ولهذا قال البصيري [٢] – رحمه الله – : (البسيط)

كفاكَ بالعِلْمِ في الأُمِيِّ مُعْجِزَةً في الجاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ في اليُتُمِ

ولما قيل للإمام جعفر بن محمد الصادق : لِمَ أوتم النبى– ﷺ – من أبويه؟ فقال : لئلا يكون لمخلوق عليه حق [٣] .

وقال الحسن : لئلا يكون لمخلوق عليه منة ، وقيل أيضا : فيه تكريم

لليتيم بالمشاركة له فى الاسم وليعرف قدر الأيتام ، ولئلا يكون له – ﷺ – اعتماد طول حياته إلا على الملك العلام [٤] .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله – ﷺ – : سألت ربى شيئا ووددت أنى لم أكن سألته قلت : يارب كل الأنبياء فذكر

[٢] ذكره العجلونى فى كشف الخلفاء : ٧٠/١ ، والزبيدى فى إتحاف السادة المتقين : ٩٠/٧ من رواية العسكرى فى الأمثال عن على – رضى الله عنه – ، وابن السمعانى فى أدب الإملاء عن ابن مسعود بسند منقطع ، والحديث فيه كلام كثير للعلماء بين تصحيح وتضعيف مع الجزم بصحة معناه .

[٣] بردة المديح المباركة : ص ٣١ .

[٤] تفسير القرطبى : ٩٧/٢٠ .

[١] تفسير الرازى : ٢٠٥/١١ ، والنيسابورى : ٣٣٨٩/٤ ، ٣٣٩٠ بتصرف .

سليمان بالريح وذكر موسى بالكلام ... فأنزل الله تعالى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ [1] .

تفسير قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى ﴾ :

وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى ﴾ معطوف على المضارع المنفى بلم داخل فى حكمه ، أو على ما يقتضيه الكلام الذى قبله .

أصل الضلال وتحقيق المعنى المراد به فى الآية :

وأصل الضلال فى كلام العرب ضد الهدى والرشاد يقال : ضل فلان يضِلُّ – بالكسر – ضلالا وضلالة ، وهو العدول عن الطريق المستقيم وهذا ليس مرادا هنا على أى وجه من وجوهه بل هو مستحيل عيه قبل النبوة وبعدها .

ومن معانى الضلال لغة : عدم معرفة الإنسان طريق شىء أو موضعه ، فكل شىء لا يعرف الإنسان موضعه أو طريقه فقد ضل عنه [2] كمن ضل الدار والمسجد والطريق الموصل إلى المقصود حسيا كان أو معنويا ، وذلك إما بسلوك طريق غير طريق الوصول أو بالبحث عنه وطلبه .

وقد وقع ذلك لنبينا – ﷺ – بهذين المعنيين وتحققت له هداية الله بالوصول إلى مراده فيهما ؛ أما على المعنى الأول : فإنه – ﷺ – قد ضل فى شعاب مكة وهو صبى صغير ، فرآه أبوجهل منصرفا عن أغنامه ، فرده إلى جده[3] .

قال ابن عباس – رضى الله عنهما – : رده الله إلى جده بيد عدوه كما فعل بموسى حين رباه بيده عدوه [1] .

[2] الدر المنثور : ٤٠٤/٦ ، وأخرجه بنحوه الحاكم فى المستدرك : كتاب التفسير ، سورة الضحى ، وصححه ، ووافقه الذهبى .

[3] لسان العرب : مادة : ضلل .

[1] ذكره البغوى فى تفسيره : ٤٩٩/٤ عن ابن عباس .

وقيل : ضل فى طريق الشام حين خرج مع عمه أبى طاب فى قافلة ميسرة غلام خديجة عندما جاء إبليس فأخذ بزمام ناقته فعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل – عليه السلام – فنفخ إبليس نفخة وقع منها بأرض الحبشة ، ورده إلى القافلة [٢] ، وقيل : أضلته مرضعته حليمة السعدية عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لترده على عبدالمطلب ، ثم رد إليها [٣] .

وأما على المعنى الثانى : فببحثه عن طريق الحق بعزلته قومه وتحنثه وتفكره حتى هداه الله إليه ، وهذا هو المراد هنا فيكون معنى الإضلال البحث عن المقصود .

والمعنى : ووجدك ضالا أى : تبحث عنه أو طالبا له فهداك إليه ، وهذا هو الأليق والأوفق لغة وسياقا ، فالضلال يأتى بمعنى الطلب .

وقريب من هذا المعنى قول من قال : ووجدك محبا للهداية فهداك إليها ،

فيكون الضلال بمعنى المحبة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [٤] . أى : فى محبتك [٥] .

وقيل : معنى (ضالاً) أى : جاهلاً ، لكن ضلال الخلقة التى أنشئ عليها الخلق ؛ لا ضلال كسب واختيار ، ولا يذم الخلق على الأول ، إذ لا صنع لهم فيه، بخلاف الثانى بعد الظفر بآلة العلم والإدراك فإنهم يذمون عليه للكسب والمعنى : أى وجدك جاهلاً على ما يكون فى أصل الخلقة ، وحالة الصغر فهداك أى : علمك، وهو

---

[٢] تفسير النيسابورى : ٣٣٨٩/٤ .

[٣] ذكره البغوى فى تفسير الموضع السابق عن سعيد بن جبير .

[٤] ذكره القرطبى فى تفسيره : ٩٨/٢٠ عن كعب مطولا .

[١] سورة يوسف : الآية ٩٥ .

[٢] تفسير الماوردى : ٤٧٣/٤ . .

كقوله تعالى ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ [١] وقوله تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ [٢] ذكر الإمام الماتريدى [٣] وهو معنى قريب متناسب مع السياق جداً .

وقيل معنى (ضالاً) أى : غافلا عن معالم النبوة وأحكام الشريعة فهداك إليها [٤] ، أو غافلا عن الشرائع التى لا تهتدى إليها العقول فهداك إليها [٥] ، أو غافلاً عن الأنبياء المتقدمة وأخبارهم حتى أطلعك الله تعالى عليها ؛ ذكره الماتريدى[٦] أو غير ذلك [٧] .

فالضلال هنا بمعنى الغفلة وليس المراد بالغفلة معناها الظاهر من ترك الشىء عن سهو لقلة اليقظة أو الإغفال عن ذكر لعدم الاكتراث ، فالنبى – ﷺ – ما غفل عن شىء من ذلك بهذا المعنى ولا أغفل شيئا ، فهذا لا يليق بمن اصطفاه الله وحفظه وطهره من حال أهل الجاهلية فظل على فطرته الأصلية ، وجعل قلبه يقظا للتحنث والتفكر والبحث عنه قبل أن يوحى إليه ، متحققا بقول الله تعالى فيه: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ [٨] .

وإنما المراد بها هنا : الخلو من معرفة ما هداه إليه بالوحى من معالم النبوة وأحكام الشريعة ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ

[٣] سورة الشورى : الآية ٥٢ .
[٤] سورة العنكبوت : الآية ٤٨ .
[٥] تفسير الماتريدى : ٥٦١/١٠ .
[٦] تفير البغوى : ٤٩٩/٤ .
[٧] تفسير أبى السعود : ٢٦٩/٥ .
[٨] تفسير الماتريدى : ٥٦١/١٠ .
[٩] تفسير القرطبى : ٩٧/٢٠ .
[١] سورة النجم : الآية ٢ .

تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (٣) .

أقوال لبعض المفسرين فى معنى " ضالاً " لا تلي بمقام النبى - ﷺ - ولا بالنبوة:

هذا وقد وردت أقوال أخرى كثيرة لبعض المفسرين أو طائفة من المفسرين فى هذه الآية أوصلها الإمام الماوردى فى تفسيره إلى تسعة تأويلات ، والرازى فى تفسيره إلى عشرين قولاً ، منها ما هو باطل فاسد لا يليق بمقام حضرته – ﷺ – ولا بواقع سيرته قبل بعثته (٤) ، ولا بالأنبياء عموما ، وذلك كقول الكلبى والسدى :" أى : وجدك

(٢) سورة الشورى : الآية ٥٢ .

(٣) سورة يوسف : الآية ٣ .

(٤) سورة النساء : الآية ١١٣ .

(١) يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " ما هممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد ، قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب ، فلما أتيت أول دار من مكة ، سمعت الدفوف والمزامير ، فقلت ما هذا ؟ قالوا : فلان تزوج بفلانة فجعلت أنظر إليهم ، فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا مس الشمس ، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك ، فضرب الله على أذنى ، فما أيقظنى إلى مس الشمس ، ثم ما هممت بعدها بسوء حتى أكرمنى الله برسالته " ، (أخرجه الحاكم بنحوه فى المستدرك : ٢٧٣/٤ من حديث على وصححه على شرط مسلم ، وقال ابن حجر فى المطالب العالية : ٢٠٩/١٧ ، وهو حديث حسن متصل ورجاله ثقات) .

وجدك كافرا والقوم كفار فهداك " [١] ، أو ما روى عنهما أنه كان على دين قومه أربعين سنة [٢] فهذا تفسير فى غاية القبح ظاهر البطلان إذ يتنافى مع ما هو مقرر باتفاق من عصمة الأنبياء مطلقاً من الكفر والكبائر قبل النبوة وبعدها ، أما الصغائر ففيها خلاف وتفريق بين ما هو شائن منها وغيره ، قال الزمخشرى : وكفى بالنبى نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر [٣] .

وقريب من هذا قول ابن عيسى : وجدك لا تعرف الحق فهداك [٤] ، وقول من قال : وجدك ضائعا فى قومك فهداك إليه لأن الضال ضائع [٥] .

وقول من قال : وجدك فى قوم ضلال فكأنك واحد منهم وإن لم تكن تعبد ما يعبدون [٦] .

أقوال كثيرة لطائفة من المفسرين فى معنى (ضالاً) بعيدة عن المعنى الظاهر للآية:

ومن هذه الأقوال الواردة ما هو بعيد من حيث اللغة أو السياق أو الظاهر، كقول الحسن : وجدك الضال فاهتدى بك على قراءته : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّاً فَهَدَى﴾ وهى قراءة على التفسير غير متواترة . وكقول بسام بن عبدالله : ووجدك ضالا بنفسك لا تدرى من أنت فعرفك بنفسك وحالك . وكقولٍ آخر للسدى : وجد قومك فى ضلال فهداك إلى إرشادهم ، وكقول الجنيد : ووجدك متحيراً فى بيان الكتاب ، فعلمك البيان . وكقول الماتريدى : لولا أن الله تعالى هداك لدينه ، ووفقك له ، وإلا وجدك ضالاً [٧]

[٢] تفسير القرطبى : ٩٩/٢٠ .
[٣] تفسير النيسابورى : ٣٣٨٩/٤ .
[٤] تفسير الزمخشرى : ٢٦٥/٤ .
[٥] تفسير الماوردى : ٤٧٢/٤ .
[٦] المصدر السابق ، ٤٧٣/٤ .
[١] تفسير ابن جزى الكلبى : ٥٨٣/٢ .

[١] . وكقول بعضهم : وجدك ضالا عن الهجرة فهداك إليها ، أو وجدك طالبا القبلة فهداك إليها ، أو وجدك ناسيا فأذكرك ، أو وجدك خامل الذكر لا تعرف فهدى الناس إليك وهداهم بك ، أو وجدك تحب أبا طالب فهداك إلى محبة ربك ، أو وجدك ضالا ليلة المعراج حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق فهداك إلى ساق العرش إلى غير ذلك من أقوال[٢] باطلة أو بعيدة لا تصح إلا من طريق الإشارة كالقول الأول . فالأولى تنزيه التفسير عنها ، وإن استحسنها بعض كبار المفسرين كالإمام القرطبى رحمه الله تعالى ، وذكر ما يصح من الإشارة فى بابه ... ومن أحسنها قول ابن عجيبة : ووجدك ضالاً : قيل : متردداً فى معانى غوامض المحبة ، فهداك بلطفه لها ، أو وجدك متحيراً عن إدراك حقيقتنا، فكملناك بأنوار ربوبيتنا حتى أدركتنا بنا ، وفى هذا ملائمة لمعنى الافتتاح[٣] ، وقال القشيرى : ضالاً عن محبتى لك ، فعرفتك أني أحبك [٤] .

تفسير قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ :

وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ أى : عَلِمك فقيرا فأغناك .

أصل عائلاً ومعناه :

يقال: عال الرجل يعيل عَيْلا وعَيْلة وعُيولا وعِيولا ومعيلا أى : افتقر ، والعائل : الفقير والجمع العالة . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [٥] وقول أحيحة بن الجلاح : (الوافر) :

[٢] تفسير الماتريدى : ٥٦٠/١٠ .

[٣] انظر هذه الأقوال فى تفاسير : الرازى : ٢٠٢/١١ – ٢٠٤ والماوردى والقرطبى وابن جزى : المواضع السابقة .

[١] تفسير ابن عجيبة : ٤٧٥/٦ .

[٢] تفسير القشيرى : ٧٤١/٣ .

[٣] سورة التوبة : الآية ٢٨ .

وَمـــا يَـــدري الفَقيـــرُ مَتـــى غِنـــاهُ وَمـــا يَـــدري الغَنِـــيُّ مَتـــى يُعيـــلُ

أي : يفتقر .

هذا هو المعروف عند العرب : عال الرجل يَعيل عَيْلة إذا افتقر ، وأعال يُعِيل إذا كثر عياله فهو مُعيل ، قال أبوجعفر النحاس : " لا نعلم بين أهل اللغة فيه اختلافاً " [١] ، وقال ابن سيدة : " وعال الرجل وأعال وأعْيل وعَيَّل كله : كثر عياله فهو مُعِيلٌ " [٢] .

وقال الأخفش : " عائلا : ذا عيال ومنه قول جرير : (الكامل)

اللَـــهُ أَنـــزَلَ فـــي الكِتـــابِ فَريضَـــةً لِإبـــنِ السَـــبيلِ وَلِلفَقيـــرِ العائِـــلِ

وقال الإمام النيسابورى : " والعائل فى الأصل كثير العيال ثم أطلق على الفقير ، وإن لم يكن له عيال ، لأن الفقر من لوازم العول " [٣] .

فالمعنى على ذلك : ووجدك ذا عيال فأغناك ، والأول أظهر وأعم والمعنى متقارب .

ولذلك فقد أحسن الإمام ابن كثير إذ جمع فى تفسيره للآية بينهما فقال : ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ أى : كنت فقيراً ذا عيال فأغناك الله عمن سواه ، فجمع له بين مقامى الفقير الصابر والغنى الشاكر صوات الله وسلامه عليه " [٤] ، وكذلك قال الإمام البيضاوى [٥] .

[٤] إعراب القرآن : ٥٠٤/٣ .

[١] لسان العرب : مادة : عول ، وعيل ، والمفردات : ص ٣٥٧ .

[٢] تفسير الماوردى : ٤٧٣ ، والقرطبى : ١٠٠/٢٠ .

[٣] تفسير ابن كثير : ٥٢٣/٤ .

[٤] تفسير البيضاوى : ٦٠٤/٤٢ .

الظاهر فى معنى الفقر والغنى فى الآية :

والظاهر أن الفقر والغنى هنا فى المال ، فقد كان – ﷺ – فقيرا ، فوسع الله عليه بأن هيأ له أسباب الرزق فى ربح التجارة والزوجة الغنية ، وغير ذلك بما يكفُّه ويكفيه ، ثم رضَّاه بما أعطاه . وهذه هى حقيقة الغنى : استغناء النفس بكفها بقليلها عن غيرها قناعة ورضا ، فطالب الزيادة والكثرة فقير دائما ، لحاجته الدائمة إلى غيره وعدم استغنائه بما معه . فليس له فى الحقيقة غنى ، كما قال – ﷺ – " ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس " [١] . " قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنَّعه الله بما آتاه " [٢] .

ولذلك قال مقاتل فى تفسير الآية : فرضاك بما أعطاك من الرزق ، وقال الكلبى : قنعك بالرزق [٣] . وقال الراغب الأصفهانى : " أى : أزال عنك فقر النفس ، وجعل لك الغنى الأكبر المعنىَّ بقوله عليه السلام الغنى غنى النفس " [٤]. فهو صلى الله عليه وسلم أعز على الله من أن يجعل غناه بالدنيا .

المعنى الإشاري فى الفقر والغنى :

ويجوز أن يكون الفقر والغنى فى الآية معنويا إرشاريا ، كالفقر من الحجج والبراهين فالمعنى عليه : ووجدك فقيرا من الحجج والبراهين فأغناك بها. ذكر الماوردى [٥] ، وكالافتقار إلى رحمة الله تعالى فالمعنى عليه : ووجدك فقيرا إلى رحمة

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه : كتاب الرقاق ، باب الغنى غنى النفس ، ومسلم فى صحيحه : كتاب الزكاة ، باب ليس الغنى عن كثرة العرض ، من حديث أبى هريرة .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه : كتاب الزكاة ، باب فى الكفاف والقناعة ، عن عبدالله بن عمرو بن العاص .

(٣) تفسير ابن كثير : ٥٢٣/٤ .

(٣) تفسير ابن كثير : ٥٢٣/٤ .

(٥) النكت والعيون : ٤٧٣/٤ .

رحمة الله وعفوه فأغناك بمغفرته لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . ذكره الراغب[١]، وكالفقر من السوى فالمعنى عليه : ووجدك فقيرا من حس الدنيا ، فأغناك به عما سواه قاله ابن عجيبة " [٢]، وكقوله الإمام الماتريدى: " ويحتمل أنه جعل فيه حالاً بلطفه أغناه به وإن لم يطلعنا عليه ، كقوله- ﷺ – فى حديث النهى عن الوصال فى الصوم : " إنى لست كأحدكم ، إن ربى يطعمنى ويسقينى "[٣] ، وهذا كله من الرزق بل هو أعلى نوعيه ، وهذا باب واسع لا ينحصر فيه الكلام ولا تحيط به الأفهام ، إذ يتعلق بافتقار العبد إلى الله ، والغنى به عما سواه المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ [٤]، فالفقر حقيقة صفة العبد ، والغنى صفة الرب ، فمتى تحقق العبد بوصفه ، أمده الله بوصفه ، فمن تحقق بوصف الفقر إليه أغناه الله به فلا يفتقر لأحد إلا إليه . كما قال ابن عطاء الله : " تحقق بأوصافك يمدَّك بأوصافه "[٥] .

ومن دعاء الشيخ أبى الحسن الشاذلى : " يا الله يا عظيم يا على يا كبير نسألك الفقر مما سواك والغنى بك حتى لا نشهد إلا إياك "[٦] .

هذا وقد أبعد النجعة من قال فى معنى الآية : " ووجدك العائل الفقير فأغناه الله بك "[١] وإن كان المعنى صحيحا واقعا فى نفس الأمر . وقرىء " عيِّلا " كسيد و" عديما " ، وهى غير متواترة [٢] ، لكنها تشهد للمعنى الأول فى الآية .

[٦] المفردات : الموضع السابق .

[١] البحر المديد : ٤٧٥/٦ .

[٢] تفسير الماتريدى ٥٦٢/١٠ ، والحديث متفق عليه من حديث عائشة ، صحيح البخارى : كتاب الصوم ، باب الوصال ، وصحيح مسلم : كتاب الصيام ، باب النهى عن الوصال فى الصوم.

[٣] سورة فاطر : الآية ١٥ .

[٤] الحكم العطائية : ص ٦٤ .

[٥] الدعاء من حزب البر لأبى الحسن الشاذلى .

تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ :

وقولـه تعـالى : ﴿ فَأَمَّـا الْيَتِيمَ فَـلَا تَقْهَرْ ﴾ الفـاء الأولـى فصـيحة ، و (أمَّـا) : حرف شرط وتفصيل وتوكيد والتقدير : مهما يكن من شيء ، قال ابن عاشور : "فكان مفادها مشعرا بشرط آخر مقدر هو الذى اجتلبت لأجله فاء الفصيحة ، وتقدير نظْم الكلام : إذ كنت تعلم ذلك وأقررت به فعليك بشكر ربك ، وبين له الشكر بقوله ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ ... إلخ .

وقد جُعل الشكر هنا مناسبا للنعمة المشكور عليها ... وصدر الكلام بـ " أما " التفصيلية لأنه تفصيل لمجمل الشكر على النعمة ، ولما كانت " أما " بمعنى : مهما يكن من شيء ، قرن جوابها بالفاء " [٣] .

و ﴿ الْيَتِيمَ ﴾ منصوب بـ " ﴿ تَقْهَرْ ﴾ ، وقدم اهتماما بشأنه ، والكلام مفرع على قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ ، حيث قوبلت هذه النعم الثلاث بوصايا ثلاث مناسبة لها على طريقة المقابلة اللطيفة ، واللف والنشر المرتب ، فقابل قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ بقوله : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ .

وقابل قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى ﴾ بقوله : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ على أن المراد به السائل عن الهدى والعلم والدين كما سيأتى .

---

[٦] تفسير الماوردى : الموضع السابق .

[١] القراءة الأولى لمحمد بن السميقع واليمانى : (تفسير الشوكانى ٤٥٦/٥) ، والثانية لابن مسعود : (تفسير الطبرى : ٨٦٨٨/١٠) ، والدر المنثور : ٤٠٥/٦ .

[٢] التحرير والتنوير : ٤٠١/٣٠ .

وقابل قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ بقوله : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ .

أما على المراد بالسائل : السائل عن حاجة وفقر وهو الظاهر .

فمقابل قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى ﴾ قوله: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾.

ومقابل قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ قوله : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ على طريقة اللف والنشر المشوش أى : المخالف لترتيب اللف .

اختلاف المفسرين فى معنى ﴿ تَقْهَرْ ﴾ على أقوال كثيرة :

وقد اختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ على أقوال كثيرة يرجع بعضها إلى بعض :

فقال مجاهد : لا تحقر .

وقال قتادة : لا تظلم . وقال : كن لليتيم كالأب الرحيم .

وقال ابن سلام : لا تستذل [١] .

وقال الأخفش : لا تسلط عليه بالظلم ن ادفع إليه حقه ، واذكر يتمك .

وقال الفراء والزجاج : لا تقهره على ماله ، فتذهب بحقه لضعفه [٢] .

وقال الطبرى : لا تظلمه فتذهب بحقه استضعافا منك له [٣] .

وقال القشيرى : لا تخفه وأرفق به وقربه [٤] .

[١] الأقوال السابقة ذكرها الماوردى فى تفسيره : ٤٧٣/٤ ، ٤٧٤ ، ما عدا قول قتادة فهو فى الطبرى : ٨٦٨٨/١٠ ، وهو منسوب فى الماوردى لسفيان .

[٢] تفسير الشوكانى : ٥/ ٤٥٦ .

[٣] تفسير الطبرى : الموضع السابق .

[٤] تفسير القشيرى لطائف الإشارات : ٤٧٢/٣

وقال ابن كثير: لا تذله وتنهره وتهنه ولكن أحسن إليه وتلطف به [١] .

وقال ابن عاشور : والقهر : الغلبة والإذلال وهو المناسب هنا [٢] .

وقال الشوكانى : لا تقهره بوجه من وجوه القهر كائنا ما كان [٣] ، وهو قول جامع لما سبق ، فالقهر يحتمل جميع ذلك ، كما قال ابن جزى الكلبى : ووجوه القهر كثيرة والنهى يعم جميعها [٤] .

وقد قرأ ابن مسعود والنخعي وغيرهما [٥]. " لا تكهر " بالكاف وهى قراءة غير متواترة ، ومعناها فى اللغة يدور حول : النهر والزجر وعبوس الوجه والشتم والشدة والغلظة [٦] وهى نفس المعانى التى فى القهر إجمالا .

النهى عن قهر اليتيم أمر بالإحسان إليه :

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد نهى هنا عن قهر اليتيم فهذا يعنى بالضرورة إكرامه والإحسان إليه ، وذلك بناء على ما قرره الأصوليون والفقهاء من الراجح أن النهى عن الشىء أمر بالإحسان إليه أو يستلزمه .

آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية فى الإحسان إلى اليتيم :

هذا بالإضافة إلى ما جاء فى كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالأمر بالإحسان إلى اليتيم والحث على إكرامه والترغيب فى كفالته ، أذكر طرفا منها على سبيل الإيجاز والإجمال .

(١) تفسير ابن كثير : ٥٢٣/٤ .
(٢) التحرير والتنوير : ٣٠/ ٤٠٢ .
(٣) تفسير الشوكانى : الموضع السابق .
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل : ٥٨٤/٢ .
(٥) تفسير القرطبى : ١٠٠/٢٠ .
(٦) لسان العرب : مادة : كهر ، وتفسير القرطبى : الموضع السابق .

فمن الآيات :

قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ [1] .

وقوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [2] .

وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [3] .

وقوله تعالى فى الأبرار من أهل الجنة :﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً{٨} إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً{٩}﴾[٤] .

وقوله تعالى :﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ{١} فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ{٢} وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ{٣} ﴾ [٥] .

[1] سورة النساء : الآية ٣٦ .
[2] سورة البقرة : الآية ١٧٧ .
[3] سورة البقرة : الآية ٢١٥ .
[٤] سورة الإنسان : الآيتان ٨ ، ٩ .
[1] سورة الماعون : الآيات : ١ – ٣ .

فجعل دفع اليتيم بغلظة وزجره من أولى صفات المكذب بالدين التى يعرف بها سواء أكان مكذبا على الحقيقة أم كان حاله حال المكذب ، وهذا من إكرام اليتيم غاية الإكرام وحمايته غاية الحماية .

ومن الأحاديث :

قوله – ﷺ – : " أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا " [١] .

وكافل اليتيم هو الذى يقوم بأموره ومصالحه ، والكفالة التامة أن يجعله فى بيته كواحد من أولاده .

وفى رواية مسلم [٢] : " كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين فى الجنة " وأشار مالك بالسبابة والوسطى .

وله أى : الذى يكون قريبا له ، ولغيره أى : الذى يكون أجنبيا عنه [٣] .

وقوله – ﷺ – : " من ضم يتيما من بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله وجبت له الجنة ألبتّة " [٤] أى : قطعا بلا شك .

وقوله – ﷺ – : " أنا أول من يفتح باب الجنة إلا أني أرى إمرأة تبادرنى فأقول لها مالَكِ ومن أنت ؟ فتقول : أنا إمرأة قَعدْتُ على أيتام لى " [١] .

[٢] أخرجه البخارى فى صحيحه : كتاب الطلاق ، باب اللعان ، وكتاب الأدب ، باب فضل من يعول يتيما عن سهل بن سعد .

[٣] صحيح مسلم : كتاب الزهد والرقائق ، باب الإحسان على الأرملة والمسكين واليتيم عن أبى هريرة .

[٤] شرح النووى على صحيح مسلم : ٣٤٠/٩ .

[٥] رواه الإمام أحمد فى سنده : ٣٤٤/٤ ، ٢٩/٥ ، وحسنه المنذرى فى الترغيب والترهيب : ٣٤٧/٣ ، ٣٤٨ .

وقوله – ﷺ – لرجل شكى إليه قسوة قلبه : " امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين " [٢] .

وقوله – ﷺ – : " من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا الله كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات " [٣] فكان ابن عمر – رضى الله عنه – إذا رأى يتيما مسح برأسه وأعطاه شيئا [٤] .

وقد روى أن داود – عليه السلام – قال وهو يناجى ربه : إلهى ما جزاء من أسند اليتيم والأرملة ابتغاء وجهك قال الرب جل جلاله : " جزاؤه أن أظله فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى " [٥] . اللهم حقق لنا ذلك ، واجعلنا فى ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك .

تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ :

تحقيق المراد بالسائل :

وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ : الظاهر أن المراد بالسائل هنا المسكين طالب العطاء من مال وطعام وكساء وغيره ، وهو ما اتجه إليه أكثر المفسرين أولاً حتى اقتصر عليه ابن جرير الطبرى فى تفسيره فقال : وأما من سألك

---

[١] عزاء المنذرى فى الترغيب والترهيب : ٣٤٩/٣ لأبى يعلى من حديث أبى هريرة وحسن إسناده .

[٢] أخرجه الإمام أحمد فى مسنده : ٣٨٧/٢ ، عن أبى هريرة ، وقال المنذرى فى الترغيب والترهيب : ٣٤٩/٣ " ورجاله رجال الصحيح " . .

[٣] أخرجه أخرجه الإمام أحمد فى مسنده : ٢٥٠/٥ ، ٢٦٥ ، عن أبى أمامة ، وضعفه الحافظ العراقى فى المغنى على هامش الإحياء : ١٠١٤/٢ ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد : ١٦٠/٨ : " رواه أحمد والطبرانى ، وفيه على بن يزيد الألهانى وهو ضعيف " .

[٤] تفسير القرطبى : ١٠١/٢٠ .

[٥] أورده السيوطى فى الدر المنثور : ٣٣٩/٥ ، والإمام الذهبى فى الكبائر : ص ٧٤ .

من ذى حاجة فلا تنهره ، ولكن أطعمه واقض له حاجته [١] ، وهذا ما ذهب إليه قتادة أيضا فقال : رد المسكين برحمة ولين [٢] وقال ابن جزي الكلبى: " وهذا هو الأظهر " [٣] .

وقال سفيان بن عيينة : " المراد به السائل عن الدين فلا تنهره بالغلظة والجفوة ، وأجبه برفق ولين " [٤] وهو القول الثانى للمفسرين ، وبه بدأ ابن كثير تفسير الآية فقال : " أى وكما كنت ضالا فهداك الله فلا تنهر السائل فى العلم المسترشد " [٥] .

والصحيح أنها عامة فتشمل كل سائل ، بدلالة تعريف الجنس فى ﴿السَّائِلَ﴾ والسائل منصوب بتنهر ، والنهر والانتهار : الزجر بمغالظة [٦] ، والتقدير مهما يكن من شيء فلا تنهر السائل كما سبق فى الآية قبلها .

والمعنى على القول الأول : لا تزجر السائل ولا تستقبله بغليظ القول ، بل أعطه ولو قليلا أو رده ردا جميلا ، واذكر فقرك .

والمعنى على القول الثانى : لا تزجر طالب الهدى والعلم المسترشد ولا تعبس فى وجهه وأجبه بلطف ولين بما علمك الله ، فقد علمك الله ما لم تكن تعلم .

وبين " تقهر " و " تنهر " جناس ناقص .

دلالة القهر والنهر على غيرهما مما هو أشد منهما :

[١] تفسير الطبرى : ٨٦٨٨/١٠ .
[٢] تفسير ابن كثير : ٥٢٣/٤ .
[٣] التسهيل لعلوم التنزيل : ٥٨٤/٢ .
[٤] تفسير الماوردى : ٤٧٤/٤ .
[٥] تفسير ابن كثير : الموضع السابق .
[٦] المفردات : ص ٥٠٩ .

ونهيه جل جلاله عن قهر اليتيم ونهر السائل لا يتوقف عند حدود ما ذكرنا فى معناهما ، والذى أقل درجاته : العبوس فى الوجه ولكنه يدل على ما هو أشد منه أذى كالشتم والضرب والمنع مع القدرة ، لكونه أولى بالحكم من المنطق به كدلالة قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴾ [1] على تحريم الضرب لأنه أشد وهو ما يسمى عند الأصوليين بفحوى الخطاب ، لكن يستثنى من ذلك ما كان بقصد التأديب والتهذيب والإرشاد والتربية ، جاريا على قواعدها مع مراعاة ما تبيحه الضرورة وما يقدر بقدرها فذلك ليس من القهر وقد جاء فى الحديث عن جابر – رضى الله عنه – قلت يا رسول الله : مم أضرب يتيمى ؟ قال : " مما كنت ضاربا منه ولدك غير واق مالك بماله ، ولا متأثل – أى : ولا جامع – من ماله مالا " [2].

كما أنه ليس من النهر زجر السائل عموماً ، تعليما له الالتزام بآداب السؤال ، دون منعه من العطاء إن سأل بالله ، أو الجواب : إن سأل عن دين الله، لورود الوعيد فيهما . لقوله – ﷺ – : " ملعون من سأل بوجه الله ، وملعون من سُئل بوجه الله ، ثم منع سائله ، ما لم يسأل هُجراً " [3] ، أى : أمراً قبيحاً ، أو سؤالاً قبيحاً بكلام قبيح . وقوله : " من سُئل عن علم فكتمه ؛ ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة " [4] .

لم خص التوصية باليتيم والسائل ؟

(1) سورة الإسراء : الآية : ٢٣ .

(2) عزاه الزيلعى فى تخريج الأحاديث والآثار : ٢٨٥/١ ، ٢٨٦ لابن حبان فى صحيحه ، والبيهقى فى الشعب وأبى نعيم فى الحلية ، ثم قال : نفرد به الخزاز وهو من ثقات البصرة.

(1) عزاه المنذرى فى الترغيب والترهيب : ٦٠١/١ للطبرانى قال : ورجاله رجال الصحيح إلا شيخه يحيى بن عثمان بن صالح وهو ثقة ، وفيه كلام ، عن أبى موسى الاشعرى .

(2) أخرجه أبوداود فى سننه : كتاب العلم ، باب كراهية منع العلم ، والترمذى فى سننه : كتاب العلم ، باب ما جاء فى كتمان العلم ، وحسنه ، من حديث أبى هريرة .

وقد خص اليتيم والسائل بنوعيه التوصية : لضعفهم وحاجتهم ، وفيه تذكير للنبى – ﷺ – بما كان عليه ، وبما أنعم الله به عليه ، وذلك فى بداية دعوته وتصدره للرسالة وسياسة الخلق ، ليكون أكثر رعاية وشفقة ورفقا بهم ، وفى هذا من الرحمة واللطف باليتيم والسائل والفقير مالا يخفى .

النهى عن نهر السائل ، أمر بالإحسان إليه :

وقد فهم من النهى عن نهر السائل كذلك الأمر بالإحسان إليه وإكرامه وعدم إهانته أو إيذائه بمنعه حقه ، أو المن عليه به ، أو إعطائه الخبيث من النفقة أو غير ذلك من ألوان إيذائه ، وقد جاءت بذلك الآيات والأحاديث .

آيات قرآنية وأحاديث نبوية فى الإحسان إلى السائل :

فمن الآيات إضافة إلى ما سبق فى آيات الإحسان لليتيم :

قوله تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ [١] .

وقوله تعالى بعدها: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴾ [٢] أى : عدهم وعداً طيبا ليناً بالعطاء إذا جاء الرزق ، كما قال جمهور المفسرين [٣] ، فالرد بلطف ولين مع الوعد بالعطاء يقوم مقامه فى إجابة السائل .

وقوله تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [٤] .

[١] سورة الإسراء : الآية : ٢٦ .
[٢] سورة الإسراء : الآية : ٢٨ .
[٣] تفسير ابن كثير : ٣٧/٣ .
[٤] سورة الذاريات : الآية : ١٩ .

وقوله تعالى :﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ{٢٤} لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ{٢٥}﴾[٥] .

فقد جعل الله ما يتلقاه السائل من أيدي الناس حقا له ، رفعا للحرج ، ودفعا للمن به عليه ، وصونا لكرامته ، إذ يأخذه بأمر الله وسنته الماضية فى خلقه .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [٦] .

وقوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [٧] .

فقد حث هنا على إعطاء السائل من طيبات الرزق حسا ومعنى ، بل مما يحب الإنسان أن يأخذ منه لنفسه ، بل من أحب ملكه إليه ، وفى هذا من التكريم للسائل ومراعاة مشاعره ؛ ما يرفع عنه مذلة الحاجة والسؤال .

وقوله تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ{٢٦٣} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى ﴾[٨] .

فقد حث مولانا هنا على تلقى السائل بالكلمة الطيبة وإكرامه وإن لم يعط مما سأل شيئا فهذا خير من إعطائه ثم المن عليه ، أو إيذائه بأى وجه من وجوه الأذى ، فإن ذلك يبطل أجر المعطى ، ويهين السائل ، فقد يكون الإكرام مع المنع ... والإهانة مع العطاء .

(٥) سورة المعارج : الآيتين ٢٤ ، ٢٥ .
(٦) سورة البقرة : الآية ٢٦٧ .
(١) سورة آل عمران : الآية ٩٢ .
(٢) سورة البقرة : الآيتين ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

والأولى والأفضل العطاء بإكرام وحلم ، وإلا فليكرم السائل نفسه بالغنى بالله ؛ وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

ومن الأحاديث :

قوله – ﷺ – لأم بُجيد لما قالت : يا رسول الله إن المسكين ليقوم على بابى فما أجد له شيئا أعطيه إياه ، فقال لها : " إلم تجدى شيئا تعطينه إياه إلا ظِلْفاً محرقا، فادفعيه إليه فى يده " [١] ، وفى هذا دليل على كراهة رد السائل بدون عطاء، حيث بالغ فى رده بأدنى ما تيسر ولو كان نفعه قليلا ؛ ولذلك روى عن السيدة عائشة – رضى الله عنها – أنها أعطت مسكينا استطعمها حبة عنب قائلة لمن تعجب من ذلك : أتعجب كم ترى فى هذه الحبة من مثقال ذرة ؟ [٢] .

وقوله – ﷺ – " ألا أخبركم بشر الناس ؟ رجل يسألُ بالله ولا يُعطِي به" [٣] .

وقوله – ﷺ – " من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سأل بالله فأعطوه ... الحديث "[٤] ، وقوله– ﷺ – : " لا يمنعن أحدكم السائل ، وأن يعطيه إذا سأل ، ولو رأى فى يده قُلْبين من ذهب "[٥] .

[٣] سنن الترمذى : كتاب الزكاة ، باب ما جاء فى حق السائل وقال : حديث حسن صحيح .

[١] رواه مالك فى الموطأ : كتاب الصدقة ، باب الترغيب فى الصدقة .

[٢] جزء من حديث لابن عباس أخرجه الترمذى فى سننه كتاب فضائل الجهاد باب ما جاء " أى الناس خير " وحسنه ، والنسائى فى سننه كتاب الزكاة باب من يسأل بالله عز وجل ولا يعطى به ، وصححه محققوه .

[٣] أخرجه أبو داود فى سننه : كتاب الزكاة ، باب عطية من سأل بالله ، والحاكم فى المستدرك ٥٧٣/١ ، وصححه ووافقه الذهبى .

[٤] القُلْب – بضم القاف وسكون اللام : السوار ، قال ابن منظور : والقلب من الأسورة : ما كان قَلْداً واحداً ويقولون : سوار قلب . (لسان العرب . مادة : قلب) والحديث أخرجه البزار فى

وقوله– ﷺ – : " ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة – وزاد فى رواية – ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم – ثلاث مرات – المنان الذى لا يعطى شيئا إلا مَنَّهُ ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر ، والمسبل إزاره "[1] والأحاديث فى ذلك كثيرة . هذا بالإضافة إلى ما تواتر من سيرته – ﷺ – من إحسانه إلى السائل، فكان لايرد سائلا ، بل يجزل له العطاء ، وما سئل شيئا قط فقال لا ، وإن أساء إليه السائل ، كما فعل الأعرابى الذى جبذ رسول الله – ﷺ – بردائه جبذة شديدة ، وكان عليه برد نجرانى غليظ الحاشية فأثر فى صفحة عاتقه– ﷺ – أثرلً شديدا ، ولم يكتفِ الأعرابى بفعله هذا بل قال مسيئا : يا محمد أعطنى من مال الله الذى عندك ، وفى رواية : فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك ، فالتفت إليه رسول الله – ﷺ – فضحك ثم أمر له بعطاء [2] ، وقد ترجم الإمام مسلم لهذا الحديث بقوله : باب من سأل بفحش وغلظة للدلالة على أن الإحسان للسائل يقتضى الإعطاء وإن أساء .

الإحسان إلى سائل العلم والهداية :

ويفهم من هذا النهى عن نهر السائل أيضا ، الأمر بالإحسان إلى السائل عن الهدى والدين ومسائل العلم ، وذلك بالإقبال عليه عناية وشفقة به والبشاشة له والرد عليه برفق ولين دون إرهاب له أو إهانة .

مسنده ٣١٣/١٥ ، وقال الذهبى فى ميزان الاعتدال ٢٥٥/٢ : قال ابن عدى : هو إلى الضعف أقرب .

(٥) أخرجه مسلم فى صحيحه : كتاب الإيمان ، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار ، والمن بالعطية ... عن أبى ذر .

(١) متفق عليه من حديث أنس . صحيح البخارى : كتاب فرض الخمس ، باب ما كان النبى– ﷺ – يعطى المؤلفة قلوبهم وغيرهم ، وصحيح مسلم : كتاب الزكاة ، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة .

آيات قرآنية وأحاديث نبوية فى الإحسان إلى سائل العلم والهداية :

وقد جاءت بذلك الآيات والأحاديث أيضا :

فمن الآيات :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى{١}أَن جَاءهُ الْأَعْمَى{٢} وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{٣} أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{٤} أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى{٥} فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى{٦} وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى{٧} وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى{٨} وَهُوَ يَخْشَى{٩} فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ [١] .

فقد عاتب الله فى هذه الآيات نبيه– ﷺ – على ما كان منه من إعراض عن ابن أم مكتوم ، وعبوسه فى وجهه ، انشغالا بسادات قريش ورغبة فى إسلامهم ، مع إعراضهم عنه وعن دعوته ، حين جاءه هو مسرعا راغبا فى العلم والاستزاده من الهداية والتزكية .

وقد فهم من هذا العتاب أن الأمر ينبغى أن يكون على عكس ذلك ، أو يكون هذا المقبل مقدما وأولى بالخطاب والاهتمام على أقل تقدير ، وأنه لا ينبغى أن يتكرر ذلك .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢] فالآية وإن كانت قد جاءت فى سياق آيات عن المشركين المحاربين الذين لا عهد لهم ولا ذمة ولا حرمة إلا أنها استثنت بالأمان من أتى يطلبه ، ليسمع كلام الله وليسأل مستعلما مستفهما عن الإسلام والهدى ، فله الأمان حتى يسمع عما سأل عنه ، ثم بعد ذلك يعود إلى موضع أمنه دون تعرض له وإن لم يسلم ، أو يقتنع بما سمع .

[١] سورة عبس : الآيات من ١ – ١٠ .

[٢] سورة التوبة : الآية ٦ .

ففى الآية إشارة إلى تأمين السائل المستعلم عن مسائل العلم عموما أيا كان مذهبه والتلطف معه وعدم ترويعه ، أو إرهابه فكريا أو إستضعافه ، فلعل ذلك يكون سببا فى هدايته واقتناعه .

ومنها قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[1].

ومنها قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2].

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [3].

ومنها قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [4].

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [5].

فدلالة هذه الآيات عامة وواضحة على ما سبق من الإحسان لسائل العلم وطالب الهداية وغير ذلك .

ومن الأحاديث :

[1] سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .
[2] سورة التوبة : الآية ١٢٨ .
[3] سورة الحجر : الآية ٨٨ .
[4] سورة النحل: الآية ١٢٥ .
[5] سورة الكهف : الآية ٢٨ .

قوله – ﷺ – : " إن الناس لكم تبع ، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأراضين يتفقهون فى الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا " .

وفى رواية : " يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلمون فإذا جاؤوكم فاستوصوا بهم خيرا " وفى رواية " فإذا رأيتموهم فقولوا لهم : مرحبا مرحبا بوصية رسول الله – ﷺ – ، واقنوهم " أى : علموهم [١]. رواه هارون العبدى عن أبى سعيد الخديوى وقال: فكـــــان أبوســـــعيد إذا رأنـــــا قـــــال: مرحبـــــا بوصـــــية رســـــول الله–ﷺ – " [٢].

ومنها : ما رواه صفوان بن عسَّال الُمرادي رضى الله عنه قال : أتيت النبى– ﷺ – وهو فى المسجد متكىءُ على بُرْد له أحمرَ ، فقلت له : يا رسول الله إنى جئت أطلب العلم ، فقال : " مرحبا بطالب العلم ، إن طالب العلم تحفُّهُ الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضاً ، حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب"[٣]، وقد كان أبو الدرداء ينظر إلى أصحاب الحديث ويبسط رداءه لهم ويقول: مرحبا بأحبة رسول الله – ﷺ – [٤].

ومنها ما رواه معاوية بن الحكم السلمى قال : بينا أنا أصلى مع رسول الله – ﷺ – إذا عطس رجل من القوم ، فقلت يرحمك الله ! فرمانى القوم بأبصارهم فقلت : واثُكْلَ أمِّياه ! ما شأنكم تنظرون إلى ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتهم يصمتوننى سكت ، فلما صلى رسول الله– ﷺ – فبأبى هو وأمى ! ما رأيت

(١) سنن أبن ماجه : كتاب المقدمة ، باب الوساط بطلبة العلم .

(٢) سنن الترمذى : كتاب العلم ، باب ما جاء فى الاستيصاء بمن يطلب العلم .

(٣) عزاه المنذرى فى الترغيب والترهيب : ٩٥/١ ، ٩٦ للإمام أحمد والطبرى بإسناد جيد واللفظ له ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٤) ذكره القرطبى فى تفسيره : ١٠٢/٢٠ .

معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه ، فوالله ما كهرنى – أى ما انتهرنى – ولا ضربنى ولا شتمنى قال : إن هذه الصلاة لا يصلح فيها

شىء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن ... " الحديث[١].

قال الإمام النووى : " فيه بيان ما كان عليه رسول الله– ﷺ – من عظيم الخلق الذى شهد الله تعالى له به ، ورفقه بالجاهل ، ورأفته بأمته ، وشفقته عليهم، وفيه : التخلق بخلقه – ﷺ – فى الرفق بالجاهل ، وحسن تعليمه واللطف به ، وتقريب الصواب إلى فهمه[٢].

ومنها : ما رواه أنس رضى الله عنه قال : بينما نحن فى المسجد مع رسول الله – ﷺ – إذ جاء عربى فقام يبول فى المسجد ، فقال أصحاب رسول الله – ﷺ – : مَهْ مَهْ [٣]، وفى رواية : فصاح به الناس ، قال : رسول الله – ﷺ – لا تُزرمُوه .. دعوه " فتركوه حتى بال ثم إن رسول الله – ﷺ – دعاه فقال له : " إن هذه المساجد لا تصلح لشىء من هذا البول ولا القذر ، إنما هى لذكر الله عز وجل، والصلاة ، وقراءة القرآن " أو كما قال رسول الله – ﷺ – ، قال : فأمر رجلا من القوم فجاء بدلو من ماء فشنَّه عليه [٤] .

قال النووى : " وفيه : الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه : كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب تحريم الكلام فى الصلاة.

(٢) شرح النووى على مسلم : ٢٧/٣ .

(٣) مه : كلمة زجر ، اسم مبنى على السكون بمعنى اسكت فيقال مَهْ مَهْ ، فإن وصلت قلت : مَهِ مَهِ (لسان العرب . مادة : مهه) .

(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم . صحيح البخارى : كتاب الأدب ، باب الرفق فى الأمر كله مختصرا ، وصحيح مسلم : كتاب الطهارة ، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات.

ولا إيذاء إذ لم يأت بالمخالفة استخفافا أو عنادا " [١] .

ومنها : ما رواه الإمام أحمد عن أبى أمامة أن فتى – أو غلاما – شابا أتى النبى – ﷺ – فقال : يا رسول الله ائذن لى بالزّنى ، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا : مه مه ، فقال : ادنه ، فدنا منه قريبا فجلس فقال " أتحبه لأمك ؟ قال : لا والله ... جعلنى الله فداك ، قال " ولا الناس يحبونه لأمهاتهم " ، قال "أفتحبه لابنتك" ؟ قال : لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداءك ، قال " ولا الناس يحبونه لبناتهم " قال " أفتحبه لأختك ؟ " قال لا والله جعلنى الله فداك ، قال " ولا الناس يحبونه لأخواتهم " قال " أفتحبه لعمتك ؟ " قال لا والله جعلنى الله فداك ، قال " ولا الناس يحبونه لعماتهم " ، قال أفتحبه لخالتك ؟ " قال : لا والله جعلنى الله فداك ، قال " ولا الناس يحبونه لخالاتهم " قال : فوضع يده عليه وقال : "اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه " فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء [٢]. والأحاديث فى ذلك كثيرة ، تبين مدى عناية الإسلام بالسائل المسترشد عن أمور الدين والعلم وإكرامه والإحسان إليه ، وما كان عليه – ﷺ – فى ذلك مما يعد مثلا أعلى وقدوة أمثل فى تاريخ الإنسانية .

تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ :

وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ : أى : تحدث بنعم ربك التى أنعم بها عليك ، معترفا بها ذكرا مظهرا آثارها حمدا وشكرا .

تحقيق المراد بالنعمة :

[١] شرح النووى على صحيح مسلم : ١٩٤/٢.

[٢] رواه الإمام أحمد فى مسنده : ٢٣٧/١٦ ، والطبرانى فى الكبير: ٨/ برقم ٧٦٧٩ ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٣٤/١ : " رجاله رجال الصحيح " .

واختلف فى المراد بالنعمة هنا أهى القرآن كما قال مجاهد والكلبى [١] ، والتحدث به تلاوته وتبليغه للأمة ؟ أم هى النبوة كما روى عن مجاهد أيضا واختاره الزجاج [٢] ، والتحدث بها تبليغا للرسالة ؟ أم هى النعم المذكورة فى هذه السورة من الإيواء فى اليتم والهدى بعد الضلالة ، والإغناء بعد العيلة ، والتحدث بها أى شكرها كما قال مقاتل [٣] ؟ والصحيح أنها عامة أريد بها الجنس لتنكيرها وإضافتها كما فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ﴾ [٤] ، فتشمل جميع النعم والتى من جملتها المعدوده والموعوده الظاهرة والباطنة ، الحسية والمعنوية، المذكورة وغيرها .

قال الشوكانى : " والظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها أو نوع من أنواعها " [٥] .

تحقيق المراد بالتحدث بالنعمة :

كما اختلف فى المراد بالتحدث بالنعمة على قولين : أحدهما : أن يحدث بها الثقة من إخوانه كما روى عن الحسن بن على رضى الله عنه ، الثانى : أن يحدث بها نفسه [٦] ، والظاهر أن الأمر أعم من ذلك أيضا ، فلا يتوقف على أشخاص ولا على مجرد أقوال ، بل يتجاوز ذلك إلى الجميع بالأعمال ، فينعم

على غيره بما يستطيع كما أنعم الله عليه ، تأسيا بفعله معه .

سر الأمر بالتحدث بالنعمة :

[١] تفسير القرطبى : ١٠٢/٢٠ ، والشوكانى : ٤٥٦/٥ ، ٤٥٧ . .

[٢] نفس المصدر والصفحات نفسها .

[٣] تفسير الشوكانى : الموضع السابق .

[٤] سورة النحل : الآية ٥٣ .

[٥] تفسير الشوكانى : الموضع السابق .

[٦] تفسير الماوردى : ٤٧٤/٤ .

ولقد أحسن الإمام محمد عبده حين جعل الآية كناية عن البذل والعطاء فقال: " من عادة البخلاء أن يكتموا ما لهم لتقوم لهم الحجة فى قبض أيديهم عن البذل ، فلا تجدهم إلا شاكين من القل ، أما الكرماء فلا يزالون يظهرون بالبذل ما آتاهم الله من فضله ، ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه ، فلهذا صح أن يجعل التحديث بالنعمة كناية عن البذل ، وإطعام الفقراء ، وإعادة المحتاجين فهذا هو قوله : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أى : إنك لما عرفت بنفسك ما يكون فيه الفقير ، فأوسع فى البذل على الفقراء ، وليس القصد هو مجرد ذكر الثروة ، فإن هذا من الفخفخة التى يتنزه عنها النبى – ﷺ – ، ولم يعرف عنه فى امتثال هذا الأمر ، أنه كان يذكر ما عنده من نقود وعروض ، ولكن الذى عرف عنه أنه كان ينفق ما عنده ويبيت طاوياً " [١] .

وهذا هو سر الأمر بالتحدث بالنعمة ؛ أن يظهرها حتى يُرغب فيما عنده منها ، ويقصد بالحوائج ، فيتخلص من شوائب الشح ، وعلل المنع .

والجار والمجرور متعلق بحدث مقدم عليه للاهتمام كما سبق فى اليتيم والسائل .

والخطاب فى هذه الآيات وإن كان للنبى – ﷺ – فإن أمته تشاركه فى الحكم إذ لا دليل على اختصاصه به ، بل الأدلة كثيرة – فى شأن ما ورد هنا – على عمومه ، ولذا قال القرطبى : " والخطاب للنبى – ﷺ – والحكم عام له ولغيره" [٢] .

والخطاب بصيغة الأمر يقتضى الوجوب فى أصله وظاهره للنبى – ﷺ – وغيره ، وهذا لا إشكال فيه فى النهى عن قهر اليتيم ، ونهر السائل أما التحدث بالنعمة فينبغى فيه مراعاة ثبوت الفرق فى وجوب الأمر بين النبى – ﷺ – وغيره،

[١] تفسير جزء "عم " للشيخ محمد عبده ، ص ١١٧ .
[٢] تفسير القرطبى : ١٠٢/٢٠ .

وذلك لتعلق هذا الأمر بطروق الآفات القادحة على القلب من رياء وعجب وفخر وغيره مما يمنع التحدث ، ويحول دون امتثال الأمر على الوجه الصحيح ، فيتغير الحكم من الوجوب إلى الحرمة ، والنبى – ﷺ – معصوم من ذلك ومن جميع الآفات القادحة فى القصد والنية .

وقد جاء فى كل وصية بلفظ إجمالى جامع لمترادفات منطوقة ، ومخالفات مفهومه ، والمعنى : اصنع مع عبادى ما صنعت معك ، مظهرا آثار نعمتى عليك ناشرا لها فذلك من مقتضيات شكرها .

نكتة لطيفة فى ترتيب آى السورة :

قال الإمام النيسابورى : " ولقد روعى فى الترتيب نكتة لطيفة ، فقدم فى معرض المنة النعمة الدينية ، وهى الهداية على النعمة الدنيوية وهى الإغناء ، وأما فى معرض الإرشاد فقدم الإشفاق على الخلق ، وأخر التحديث ليكون أدخل فى الاستمالة وأجلب للدواعى فإنه ما لم ينتظم أمر المعاش لم تفرغ الخواطر لقبول التكاليف ، والتزام أمر المعاد ، وتقديماً لحظ الخلق على حظ نفسه ، لأنه غنى وهم المحتاجون ، ولهذا رضى نفسه بالقول فقط ، ولأن الاستغراق فى بحر الشكر ، ومعرفة المنعم غاية الغايات ، ونهاية الطاعات " [1] .

دلالة الآية على جواز تحدث الإنسان بعمله الصالح :

وقد دلت هذه الآية على جواز تحدث الإنسان بعمله الصالح وإظهاره وإشاعته ، تحدثا بنعمة الله واعترافا بفضله عليه إذ وفقه إليه .

[1] تفسير النيسابورى : ٤/٣٣٩٠ .

ومن العلماء من رأى وجوب ذلك لأصل الأمر وظاهره ، ومنهم من رأى ندبه، والأمر يختلف باختلاف الحال ، ويرجع إلى نية المتحدث ، فقد يحرم إذا قصد به الرياء والفخر .

وقد استدلوا على ذلك بأحاديث وآثار أيضا منها :

قوله – ﷺ – : " من أُبْلى بَلاءً – أى: أعطى عطاء – فذكره فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره " [١] .

وقوله – ﷺ – " التحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر " [٢] .

وقول الحسن بن على – رضى الله عنه – فى الآية : " إذا أصبت خيرا فحدث إخوانك " [٣] .

وقول أبى نضرة " كان المسلمون يرون أن من شكر النعمة أن يحدَّث بها" [٤] .

وبما روى عن أبى الأسود الدؤلى وزاذان الكندى قالا: قلنا لعلى : حدثنا عن أصحابك فذكر مناقبهم قلنا : فحدثنا عن نفسك قال : مهلا نهى الله عن التزكية فقال

[١] أخرجه أبوداود فى سننه : كتاب الأدب ، باب فى شكر المعروف وصححه محققوه وصححه الألبانى فى الصحيحة حديث رقم ٦١٨ .

[٢] عزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد : ٢١٧/٥ لعبدالله بن أحمد فى زوائده ، والبزار فى مسنده، والطبرانى من حديث النعمان بن بشير ، وقال : ورجالهم ثقات ، وقال المنذرى فى الترغيب والترهيب : ٧٨/٢ ، إسناده لا بأس به .

[٣] ذكره السيوطى فى الدر المنثور : ٤٠٥/٦ من رواية ابن أبى حاتم .

[٤] أخرجه الطبرى فى تفسيره : ٨٦٨٨/١٠ .

له رجل فإن الله يقول ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ قال : فإننى أحدث بنعمة ربى ، كنت والله إذا سُئِلتُ أعطيت وإذا سُكِت ابتديت ، وبين الجوانح علم جم فاسألونى [١] .

وبما روي عن الفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة أنهما جلسا ليلة إلى الصباح يتذاكران النعم ، أنعم الله علينا فى كذا ، أنعم الله علينا فى كذا [٢] .

وما رواه القرطبى فى تفسير الآية عن عمرو بن ميمون قال : إذا لقي الرجل من إخوته من يثق به يقول له رزق الله من الصلاة البارحة كذا وكذا قال القرطبى : وكان أبوفراس عبدالله بن غالب إذا أصبح يقول : لقد رزقنى الله البارحة كذا ، وقرأت كذا ، وصليت كذا وذكرت الله كذا ، وفعلت كذا ، فقلنا له : يا أبا فراس إن مثلك لا يقول هذا ! قال : يقول الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ وتقولون أنتم : لا تحدث بنعمة الله ! ونحوه عن أيوب السختيانى وأبى رجاء العطاردى – رضى الله عنهم – [٣] .

أقول : فدل ذلك كله على جواز تحدث الإنسان إلى أهل الثقة من إخوانه بعمله الصالح غير الظاهر ، لكن ذلك بضوابط ترجع إلى عموم قواعد الشرع منها:

ضوابط تحدث الإنسان بعمله الصالح :

١ – أن يقصد به الشكر .

٢ – أن يكون ذلك فى أهل الثقة ممن يعرفون الحكم ويفهمون القصد حتى لا يساء الظن به .

٣ – أن يكون لذكره فائدة من تعليم أو اقتداء أو دفع شبهة عنه .

[١] ذكره السيوطى فى الدر المنثور : ٤٠٥/٦ من رواية الطبرانى .
[٢] ذكره السيوطى فى الدر المنثور : ٤٠٥/٦ من رواية البيهقى عن ابن أبى الحوارى .
[٣] تفسير القرطبى : ١٠٢/٢٠ ، ١٠٣ .

٤ – أن يأمن على نفسه الرياء والغرور والعجب والافتخار به .

٥ – أن لا ينكسر به قلب عديم فاقد لمثل ما يتحدث به .

٦ – أن يكون ذلك بقدر الغرض الذى سيق الحديث من أجله .

ثم إن من الأئمة من ذهب إلى تفضيل الستر على كل حال خشية السمعة قال الزمخشرى : " وإن ما يجوز مثل هذا إذا قصد به اللطف وأن يقتدي به غيره، وأمن على نفسه الفتنة ، والستر أفضل ، ولو لم يكن فيه إلا التشبه بأهل الرياء والسمعة لكفى به " [١] .

أقول : وفى هذا نظر إذ محله إذا لم يأمن على نفسه ذلك ، فإذا أمن فلا حرج لما ورد فيما سبق ، والتشابه فى الظاهر لا يضر مع صحة القصد والنية والله أعلم .

إظهار النعمة من معانى التحدث بها :

ومن التحدث بالنعمة إظهار آثارها على العبد من ملبس جميل حسن ، ومسكن حسن ، ومركب حسن وغير ذلك ، دون إسراف أو تبذير ومبالغة فقد روى أبوداود واللفظ له والنسائى وغيرهما عن أبى الأحوص عن أبيه قال : أتيت النبى – ﷺ – فى ثوب دونٍ فقال : " ألك مال ؟ " قال : نعم قال : " من أي المال ؟ " قال قد آتانى الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق – وفى رواية النسائى: نعم من كل المال قد آتانى الله – قال : " فإذا آتاك الله مالا فليرُ أثرُ نعمة الله عليك وكرامته"[٢] .

[١] تفسير الزمخشرى : ٢٦٥/٤ .

[١] سنن أبى داود : كتاب اللباس ، باب فى غسل الثوب وفى الخُلْقان وصححه محققوه ، وسنن النسائى : كتاب الزينة ، باب الجلاجل ، وباب ذكر ما ستحب من لبس الثياب وما يكره منها.

وروى الترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول – ﷺ – : " إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده " [١] .

وروى مسلم فى صحيحه عن عبدالله بن مسعود عن النبى – ﷺ – لما قال له رجل : إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا قال " إن الله جميل يحب الجمال " [٢] .

اللهم اجعلنا من أهل جمالك الباطن والظاهر ، ومن أهل شكر نعمتك ، وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

التكبير من سورة الضحى بين كل سورتين حتى الختام :

قال ابن الجزري : " اعلم أن التكبير صح عند أهل مكة قرائهم وعلمائهم وأئمتهم ومن روى عنهم ، صحة استفاضت واشتهرت وذاعت وانتشرت حتى بلغت حد التواتر ... وقد صار على هذا العمل عند أهل الأمصار فى سائر الأقطار عند ختمهم فى المحافل واجتماعهم فى المجالس لدى الأماثل وكثير منهم يقوم به فى صلاة رمضان ولا يتركه عند الختم على أي حال كان " [٣] .

والأصل فى ذلك ما رواه الحاكم وصححه عن أبى بزة : سمعت عكرمة ابن سليمان يقول : قرأت على إسماعيل بن عبدالله بن قسطنطين ، فلما بلغت ﴿وَالضُّحَى ﴾ قال لى : كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم ، فإني قرأت على عبدالله بن كثير فلما بلغت ﴿ وَالضُّحَى ﴾ قال : كبر حتى تختم ، وأخبره عبدالله ابن كثير أنه قرأ على

[٢] سنن الترمذى : كتاب الأدب ، باب ما جاء أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده وحسنه .

[٣] صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه .

[٤] النشر فى القراءات العشر : ٢/٤١٠ .

مجاهد ، وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك ، وأخبره ابن عباس أن أبى بن كعب أمره بذلك ، وأخبره أبى بن كعب أن رسول الله أمره بذلك[١] .

والحديث رواه ابن كثير فى تفسيره عن ابن أبى بزة المقري وذكر تضعيف أبي حاتم الرازى ، وأبي جعفر العقيلى له قال : " لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبوشامة فى شرح الشاطبي عن الشافعى أنه سمع رجلا يكبر هذا التكبير فى الصلاة فقال : أحسنت وأصبت السنة ، وهذا يقتضي صحة هذا الحديث " [٢] .

والتكبير هو ما عليه جمهور القراء ، ومنعه غيرهم حتى لا يكون ذريعة إلى الزيادة فى القرآن .

وقد رد الإمام القرطبى على ذلك فقال : " القرآن ثبت نقلا متواترا سوره وآياته وحروفه ، لا زيادة فيه ولا نقصان ، فالتكبير على هذا ليس بقرآن ، فإذا كان بسم الله الرحمن الرحيم المكتوب فى المصحف بخط المصحف ليس بقرآن ، فكيف بالتكبير الذى هو ليس بمكتوب " [٣] .

موضع التكبير ، وكيفيته ، وسببه :

أما موضع التكبير : فقد اختلفوا فى ابتدائه ، فالجمهور على أن التكبير من آخر الضحى على خلاف بينهم ، هل التكبير لأول السورة ؟ فموضعه أو الشرح أو لآخرها ؟ فموضعه آخر الضحى وقال غيرهم : يكبر من آخر " والليل إذا يغشى ".

[١] المستدرك : كتاب التفسير ، تفسير سورة الضحى .
[٢] تفسير ابن كثير : ٥٢١/٤ .
[٣] تفسير القرطبى : ١٠٣/٢٠ .

قال ابن الجزرى : " ومن ذكره كذلك فإنما أراد كونه من أول الضحى ... قال : إذ التكبير إنما هو ناشىء عن النصوص المتقدمة ، والنصوص المتقدمة دائرة بين ذكر " الضحى " وأول " ألم نشرح "، ولم يذكر فى شىء منها " والليل " فعلم أن المقصود بذكر آخر " والليل" هو أول "الضحى" وهو الصواب بلاشك"[١] .

وكما اختلفوا فى موضع ابتداء التكبير ... اختلفوا فى موضع انتهائه ، فالجمهور على إنتهاء التكبير آخر سورة " الناس " ، وقال غيرهم : أولها .

قال ابن الجزري : " والوجهان مبنيان على أصل وهو أن التكبير هل هو لأول السور أم لآخرها ؟ فمن ذهب إلى أنه لأول السورة لم يكبر فى آخر " الناس" سواء كان ابتداء التكبير عنده من أول " الم نشرح " أو من أول " الضحى " كبر فى آخر " الناس " هذا هو فصل النزاع فى المسألة، ومن وجد فى كلامه خلاف ذلك فإنما هو بناء على غير أصل، أو مراده غير ظاهره " [٢] .

وأما كيفيته أو صيغته : فلم يختلفوا فى الاقتصار على لفظه " الله أكبر "، وإنما اختلفوا فى الزيادة على ذلك من التهليل قبله ولفظه : " لا إله إلا الله والله أكبر" ، أو التهليل قبله والتحميد بعده ولفظه : " لا إله إلا الله والله اكبر ولله الحمد" فيجمع بينها ثم يبسمل قال الإمام الصاوى : " وعليها العمل " [٣] ، والأمر فيه سعة ففعله بأي صيغة حسن وتركه لا حرج فيه .

[١] النشر : ٤١٩/٢ .
[٢] المرجع السابق : ٤٢٠/٢ .
[١] حاشية الصاوى على الجلالين : ٢٧٧/٤ .

وأما كيفية أدائه : فقد لخصها ابن الجزرى فى تقريب النشر فقال : " ثم إنك إذا وصلت أواخر السورة بالتكبير كسرت ما كان آخرهن ساكنا أو منونا ، نحو: (فحدث) الله أكبر ، و(لخبير) الله أكبر ، و(مسد) الله أكبر ، و(توابا) الله أكبر، وإن كان محركا تركته على حاله وحذفت همزة الوصل لملاقاته الساكن نحو : (الحاكمين) الله أكبر ، و(دين) الله أكبر ، و(عن النعيم) الله أكبر ، و (حسد) الله أكبر ، وإن كان صلة حذفتها نحو (ربه) الله أكبر ، وإذا وصلته بالتهليل أبقيته على حاله ، فإن كان منونا أدغمته فى اللام نحو : (حامية) لا إله إلا الله والله أكبر ، ويجوز المد للتعظيم كما قدمنا فى باب المد ، ويجوز المد على قاعدة المنفصل "[١].

وأما سببه : فيرجع إلى سبب نزول السورة ، قال الإمام البغوى : " وكان سبب التكبير أن الوحى لما احتبس قال المشركون : هجره شيطانه وودعه فاغتم النبى – ﷺ – لذلك ، فلما نزل ﴿ وَالضُّحَى ﴾ كبر رسول الله – ﷺ – فرحا بنزول الوحى فاتخذوه سنه " [٢] . لكن قال الإمام ابن كثير : " ولم يرد ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف " [٣] . أقول : ويعنى بذلك ربط سبب التكبير بسبب النزول ، وإلا سبب النزول صحيح كما سبق . وفى التكبير أحكام أخرى محلها كتب القراءات ... والله أعلم .

[٤] تقريب النشر فى القراءات العشر : ص ١٩٤ .
[٤] تفسير البغوى : ٥٠١/٤ .
[٤] تفسير ابن كثير : ٥٢١/٤ .

المصادر والمراجع

١ – إتحاف السيادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، للعلامة مرتضى الزبيدى، ط . دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م .

٢ – الإتقان فى علوم القرآن للإمام السيوطى ، تحقيق : محمد أبوالفضل إبراهيم ، ط . المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

٣ – أسباب نزول القرآن ، للإمام أبى الحسن الواحدى ، تحقيق : كمال بسيونى زغلول ، ط . دار اكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١١ هـ – ١٩٩١م .

٤ – أسباب نزول القرآن ، للإمام السيوطى ، تحقيق : د. حمزة النشرتى ، وآخرين ، ط . مؤسسة الأهرام ، د . ت .

٥ – إعراب القرآن ، لأبى جعفر أحمد بن محمد النحاس ، تحقيق : د. محمد تامر ، وآخرين ، ط . دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م .

٦ – بدع التفاسير ، لأبى الفضل عبدالله محمد الصديق الغمارى الحسنى ، ط . مكتبة القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م .

٧ – بردة المديح المباركة ، للإمام شرف الدين أبى عبدالله البوصيرى ، ط . الشمرلى ، د . ت .

٨ – التبيان فى أقسام القرآن ، لابن قيم الجوزية ، ط . دار الفكر ، د. ت .

٩ – تخريج الأحاديث والآثار الواقعة فى تفسير الكشاف للزمخشرى ، للإمام جمال الدين الزيلعى ، تحقيق : عبدالله بن عبدالرحمن السعد ، ط . دار ابن خزيمة ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ .

١٠ – الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ، للإمام الحافظ المنذرى ، ط . درا الريان للتراث ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

١١ – تفسير الألوسى (روح المعان] فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) ، لشهاب الديمن السيد محمود الألوسى ، ط . دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م .

١٢ – تفسير ابن جُزَي الكلبي (التسهيل لعلوم التنزيل) ، للإمام أبي القاسم محمد ابن جزي الكلبى ، تحقيق : محمد سالم هاشم ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م .

١٣ – تفسير ابن الجوزي (زاد المسير فى علم التفسير) ، لأبى الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن الجوزي ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٩م .

١٤ – تفسير ابن عاشور (التحرير والتنوير) ، للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، ط. الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٤م .

١٥ – تفسير ابن عجيبة (البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد) ، لأبى العباس أحمد بن محمد بن عجيبة ، تحقيق : أحمد عبدالله القرشى ، ط . د. حسن عباس زكى ، القاهرة ، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م .

١٦ – تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز) ، لابن عطية الأندلسى ، تحقيق : عبدالسلام عبدالشافى محمد ، ط . دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٧م .

١٧ – تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ، للحفاظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير ، ط. مكتبة مصر ، د. ت .

١٨ – تفسير أبي حيّان (البحر المحيط) ، لأبى حيان الأندلسى ، تحقيق : عادل أحمد عبدالموجود وآخرين ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، ٢٠١٠م .

١٩ – تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) ، لقاضي القضاة أبي السعود محمد بن محمد العمادي ، ط . المطبعة المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٣٤٧ هـ – ١٩٢٨م .

٢٠ – تفسير البغوي (معالم التنزيل) ، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي ، تحقيق : خالد عبدالرحمن العك ، ومروان سوار ، ط. دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٣هت – ١٩٩٢م .

٢١ – تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ، للقاضي ناصر الدين البيضاوي ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .

٢٢ – تفسير جزء عم ، للشيخ الإمام محمد عبده ، ط. دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٥م .

٢٣ – تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) ، للإمام فخر الدين الرازي ، ط . دار الفكر، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م .

٢٤ – تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل) ، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري ، ط . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، د . ت .

٢٥ – تفسير السيوطي (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور) ن للإمام جلال الدين السيوطى ، ط . مطبعة الأنوار المحمدية ، د . ت .

٢٦ – تفسير الشوكاني (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير) ، لمحمد بن علي الشوكاني ، تحقيق : د. عبدالرحمن عميرة ، ط. دار الوفاء ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م .

٢٧ – تفسير الصاوي (حاشية الصاوي على الجلالين) ، للعارف بالله الشيخ أحمد الصاوي ، ط . دار إحياء الكتب العربية ، د . ت .

٢٨ – تفسير الطبري (جامعة البيان عن تأويل آي القرآن) ، ط . دار السلام ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م .

٢٩ – تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) للإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، تحقيق : د. محمد إبراهيم الحفناوي ، د. محمود حامد عثمان ، ط . دار الحديث ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

٣٠ – تفسير القشيري (لطائف الإشارات) ، للإمام أبي القاسم عبدالكريم القشيري، تحقيق : د. إبراهيم بسيوني ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١م .

٣١ – تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) ، للإمام أبي منصور الماتريدي ، تحقيق : د. مجدى باسلوم ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م .

٣٢ – تفسير الماوردي (النكت والعيون) ، لأبى الحسن على بن حبيب الماوردي البصري ، تحقيق : خضر محمد نصر ، ط . وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .

٣٣ – تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) ، للإمام الحسن بن محمد النيسابورى ، ط . دار الصفوة ، الطبعة الأولى ، ١٤١١٦هـ – ١٩٩٥م .

٣٤ – التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية ، ط . مجمع البحوث الإسلامية ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م .

٣٥ – تقريب النشر فى القراءات العشر ، لابن الجزري ، تحقيق : إبراهيم عطوة عوض ، ط . دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .

٣٦ – تلبيس إبليس ، لجمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي ، تحقيق : د. أحمد حجازي السقا ، ط . مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د . ت .

٣٧ – الثقات ، للحافظ أبي حاتم محمد بن حبان، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، ط . دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.

٣٨ – الحكم العطائية ، لتاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندري ، ط . دار السلام، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م .

٣٩ – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، للحافظ أبي نعيم الأصبهاني ، ط . دار الكتب العربى ، بيروت ، لبنان، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

٤٠ – الداء والدواء ، لشمس الدين محمد بن قيم الجوزية ، ط . مكتبة الصفا ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م .

٤١ – دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، للإمام أبي بكر البيهقى ، ط. دار الريان للتراث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .

٤٢ – سنن ابن ماجه ، للحفاظ أبي عبدالله بن ماجه ، تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقى ، ط . دار الريان للتراث ، القاهرة ، د. ت .

٤٣ – سنن أبى داود ، للحافظ أبى داود السجستانى ، تحقيق : د. السيد محمد السيد وآخرين ، ط. دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .

٤٤ – سنن الترمذي ، للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط وآخرين ، ط. دار الرسالة العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، د. ت .

٤٥ – سنن النسائي بشرح السيوطي والسندي ، تحقيق : د. السيد محمد السيد ، وأ. على محمد على ، ط. دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .

٤٦ – شعب الإيمان ، للإمام أبي بكر البيهقى ، أشرف على تحقيقه : مختار أحمد الندوى ، ط. مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م .

٤٧ – صحيح البخاري ، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، ط. دار ومطابع الشعب ، د. ت .

٤٨ – صحيح مسلم بشرح النووى ، للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي ، تحقيق : عصام الصبابطي وآخرين ، ط. دار الحديث ، القاهرة، الطبعة الأولى ، ١٤١٥ – ١٩٩٤م .

٤٩ – فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ، ط. دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، د.ت .

٥٠ – الفيوضات الربانية بتفسير بعض الآيات القرآنية ، للسيد أحمد بن إدريس الحسني المغربي ، ط. دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، د. ت .

٥١ – الكبائر ، للإمام شمس الدين الذهبى ، ط . دار الغد العربى ، القاهرة، الطبعة الثالثة ، د. ت .

٥٢ – كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، للشيخ إسماعيل العجلوني ، ط. دار إحياء التراث ، د. ت .

٥٣ – لسان العرب ، لابن منظور ، ط. دار المعارف ، القاهرة ، د. ت .

٥٤ – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للإمام علي بن أبي بكر الهيثمى ، ط. دار الريان للتراث ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ .

٥٥ – المستدرك على الصحيحين ، للإمام لحاكم ، تحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م .

٥٦ – مسند البزار (البحر الزخار) ، للإمام أبي بكر أحمد بن عمرو البزار ، ط. مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، تحقيق : د. محفوظ عبدالرحمن زين الله ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ .

٥٧ – المسند ، للإمام أحمد بن حنبل ، ط . المكتب الإسلامى ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

٥٨ – المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية ، للحافظ ابن حجر ، تحقيق : د. سعد بن ناصر الشتري ، ط. دار العاصمة ، دار الغيث ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م .

٥٩ – المعجم الكبير ، للإمام الطبراني ، تحقيق : حمدى عبدالمجيد السلفي ، ط. مكتبة الزهراء ، الموصل ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م .

٦٠ – المفردات فى غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، تحقيق : محمد خليل عيتاني ، ط. دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م .

٦١ – الموافقات فى أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي ، ط. دار المعرفة، بيروت ، لبنان ، د. ت .

٦٢ – الموطأ ، للإمام مالك بن أنس ، تحقيق : د. بشار عواد معروف ، ط. دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، د. ت .

٦٣ – ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ، للإمام الذهبي ، تحقيق : على محمد معوض ، وعادل أحمد عبدالموجود ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥م .

٦٤ – النشر فى القراءات العشر ، للحافظ أبي الخير الشهير بابن الجزري ، ط. دار الفكر ، د. ت .